روايات الهلال

العاشق الفارس

إسكندر دوماس الكبير

REWAYAT AL-HILAL
No. 436 — April 1985



روايات الهلال

REWAYAT AL-HILAL

تصدر عن مؤسسة - دار الهلال

العدد ٤٣٦ - ابريل ١٩٨٥ - رجب ١٤٠٥

No. 436 — April 1985

رئيس مجلس الإدارة : **مكرم محمد أحمد**

رئيس التحرير : **مصطفى نبيل**

سكرتير التحرير : **موسى عبد**

الاشتراكات

قيمة الاشتراك السنوى « ١٢ عددا » فى جمهورية مصر العربية ستة جنيهات بالبريد العادى وفى بلاد اتحاد البريد العربى والافريقى والباكستان اثنا عشر دولارا او مايعادلها بالبريد الجوى وفى سائر انحاء العالم عشرون دولارا بالبريد الجوى .

والقيمة تسدد مقدما لقسم الاشتراكات بدار الهلال فى ج . م ع نقدا اوبحوالة بريدية غير حكومية وفى الخارج بشيك مصرفى لامر مؤسسة دار الهلال ، وتضاف رسوم البريد المسجل على الاسعار الموضحة اعلاه اعند الطلب .

اسعار البيع فى البلاد العربية والخارج للاعداد العادية من سلسلة روايات الهلال الشهرية بسعر ٥٠٠ مليم للقارئ فى مصر ، سوريا ٩٠٠ ق.س ، لبنان ٩٠٠ ق.ل ، الاردن ٦٠٠ فلس ، الكويت ٩٠٠ فلس ، العراق ١٢٠٠ فلس ، السعودية ٧ ريالات ، السودان ١٢٥٠ م. سودانى ، تونس ١٢٥٠مليما ، المغرب ١٢٥٠ فرنكا ، الجزائر ١٢٥٠ سنتا ، الخليج ٨٠٠ فلس ، غزة والضفة ٥٠ سنتا ، الصومال ٨٠ بنى ، داكار ٦٠٠ فرنك ، لاجوس ٨٠ بنى ، اسمرة ٦٠٠سنت ، اليمن الشمالية ٧ ريالات ، اديس ابابا ٦٠٠ سنت ، باريس ١٢ فرنكا ، لندن ١٠٠ بنس ، ايطاليا ٢٥٠٠ ليرة ، سويسرا ٤ فرنكات ، اليناء ١٠٠ دراخمة، فيينا ٤٠ شلنا ، فرانكفورت ٥ ماركات ، كوبنهاجن ١٥ كرونة ، استوكهولم ١٥ كرونة ، كندا ٣٠٠ سنت ، البرازيل ٤٠٠ سنت ، نيويورك ٣٥٠ سنتا ، لوس انجيلوس ٤٠٠ سنت ، استراليا ٤٠٠ سنت ، هولندا ٥ فلورين ، عدن ٤٠٠ فلس

الادارة : دار الهلال ١٦ شارع محمد عز العرب - القاهرة .

تليفون ٢٠٠١٠ عشرة خطوط .



روايات الهلال

مجلة شهرية لنشر القصص العالمي

الغلاف بريشة الفنانة
سميحة حسنين

العاشق والفارس

الفيكونت دى براجيلون

بقلم

إسكندر دوماس الكبير

ترجمة

صوفى عبد الله



دار الهلال

مؤلف الرواية

لقبوه بالكبير تمييزا له من ابنه الذى يحمل اسمه نفسه « اسكندر دوماس » ، وقد ولد سنة ١٨٠٢ فى قرية فرنسية تدعى فيلير كوتريه وقضى بها اعوامه الاولى خاملا ، ثم انتقل الى باريس وعمل فى مكتبة دوق اورليتز ، ثم اتصل بالبارون تايلور ، ومن طريقه عرف وكيل نيابة اسمه « فيلناف » كان قبل الثورة الفرنسية يكتب فى كثير من الصحف ، فاتخذه أستاذا ومرشدا .

ويعد اسكندر دوماس الكبير أكثر الكتاب الروائيين انتاجا ، وقد ترجمت رواياته الى أكثر اللغات الحية ، ومن اشهرها هذه الرواية .
واشتهر طول حياته بالاسراف الشديد ، حتى لقد حجز الدائنون على متاعه أكثر من مرة برغم ما كان يربحه من مؤلفاته . على انه مع ذلك كان دائم الفكاهة والابتسام لا يبالى ما يقع فيه من الازمات المالية .

وقد روى ابنه انه قال له يوما : « انك يا ابى كأنما ترمى أموالك من النافذة » ،فأجابه : « لا بأس ، فهناك من يلتقطونها ! » . وقال لصديق له عاتبه على اسرافه : « كيف أكون مسرفا مع أننى جئت الى باريس وليس معى سوى قطعة ذهبية واحدة ما زلت محتفظا بها حتى الآن ؟! » .

وطلب اليه يوما أن يساهم فى التبرع بنفقات جنازة أحد المحضرين ، فتبرع بضعف المبلغ المطلوب قائلا : « هـذا لـكى تدفنوا اثنين من المحضرين ! » .

وذهب ذات ليلة الى مسرح الكوميدى فرانسيز لمشاهدة تمثيلية شعرية لصديقه « اسكندر سوميه » . وهناك رأى أحد النظارة نائما فلفت اليه نظر المؤلف مداعبا ، ثم حدث فى الليلة التالية ان كانا فى المسرح يشاهدان تمثيلية له هو فلفت سوميه نظره الى متفرج نائم فى المكان نفسه فأجابه بقوله : « هذا الشخص هو نفسه الذى رأيناه أمس لم يستيقظ بعد ! » » .

شخصيات الرواية

دارتانيان : قائد حرس فرسان الملك .

آتوس : كونت دى لافير .. نبيل كريم وفارس مغوار .

راءول : فيكونت دى براجيلون ، وابن آتوس فى الخامسة والعشرين .

اراميس : شيفالييه ديربلاى ، أسقف فان ، والقائد العام لليسوعيين ، وقد صار فيما بعد دوق آلاميدا .

بورتوس : بارون دى فالون ، أطيب الفرسان قلبا ، يمتاز بشجاعة نادرة ، وقوة بدنية تضاهى قوة شمشون الجبار .

الملك لويس الرابع عشر : ملك فرنسا الشاب .. مستبد، شغوف بالنساء .

آن النمسوية : ام الملك لويس الرابع عشر .

فوكيه : وزير المالية .. محب الفنون والفنانين ، تكب كنكبة البرامكة .

كولبير : مساعد فوكيه الذى دس له ثم خلعه بعد نكبته .

لويز دى لافاليير : حبيبة راءول ، ثم عشيقة الملك .

شارل الثانى : ملك انجلترا ، ابن شارل الاول المقتول .

بارى : وصيف الملك شارل الثانى .

بلانشيه : خادم دارتانيان سابقا ، ومن تجار باريس واصحاب المطاعم فيها بعد ذلك .

مونك : قائد جيش انجلترا وخليفة كرومويل الذى تواطأ مع شارل الثانى ورده الى العرش .

زيارة ملكية

حول منتصف شهر مايو من سنة ١٦٦٠ ، والساعة تناهز التاسعة صباحا ، والندى ما تزال بقية من قطـراته على الاعشاب والاشجار المحيطة بقصر بلوا . كانت كوكبة صغيرة قوامها ثلاثة رجال ووصيفان تعبر قنطرة المدينة ، دون ان تثير من اهتمام المارة على الجانبين أكثر من رفع اليد الى الراس بالتحية ، او حركة من طرف اللسان حين يهمس احدهم : « ها قد عاد صاحب السمو من الصيد ! » . ثم ينصرف النـــاس عن ذلك الامر الى ما يضطربون فيه من شئون الحياة ، غير مكترثين او متمهلين امام ذلك المشهد ، مع ان ذلك الامير العائد هو عميد الاسرة المالكة الفرنسية كلها ، وان كان الملك الشاب لويس الرابع عشر ــ ابن اخيه ــ هو الرئيس الرسمي باعتبار منصبه.

وكان لمدينة « بلوا » ان تعتز بالشرف العظيم الذى اضفاه عليها صاحب السمو « جاستون اورليان » ابن هنرى الرابع ، باقامته فى قلعتها العتيقة . ولكنه كان يغلب عليه الخمول ، فلم يثر فى الناس اهتماما بامره . وهكذا مضى موكبه فى الطريق المرتفع من القنطرة الى ان بلغ باب القصر ، فاصطف الحراس لاستقباله ، وترجل هو عن جواده دون ان ينطق بحرف ، ثم دلف الى جناحه الخـــاص حيث تولى وصيفة تبديل ملابسه ، فخلع عنه حلة الصـيد والبسه حلة عادية ، ثم تمدد الامير فوق مقعد طويل ، وما لبث قليلا حتى راح فى سبات عميق !

اما الحراس الواقفون بالابواب الخارجية وفى صحن القصر ، فقد اطمأنوا الى عودة الامير من صيده قبل الظهر ، فاستلقوا فوق المقاعد الحجرية معرضين اجسامهم لاشـــعة الشمس ، واختفى السياس بالخيل داخل الاصطبلات ، فبدا القصر كله وكانما راح هو الآخر فى مثل ذلك السبات العميق !

وجذبت الاميرة اورليان حبلا مذهبا ، فدوت دقات ناقوس صغير تنبيء بانها قد انتهت من زينتها ، وانها فى انتظـــار صاحب السمو للتوجه الى قاعة الطعام الكبرى . وفى هذه اللحظة وصل الى باب القصر فارس شاب في نحو الخامسة والعشرين من عمره ، طويل القامة ، تزين كتفيه شارات الجندية التي تشبه في منظرها فرشاة مذهبة !

وجذب الفارس بيده اللطيفة التكوين عنان جواده ، ورفع بيده الاخرى قبعته التي يزينها ريش طويل ، وقال للحارس الذى اقترب منه :

ـ رسول الى صاحب السمو الملكى !

ـ اهى رســالة عاجلة ؟ . اذا كان الامر كذلك فانى ادعو ناظر القصر .. ولكن ما اسم السيد ؟

ـ الفيـكونت دى براجيلون ، رسول صـــــاحب السمو الامير كونديه !

واسرع الفارس بارتقاء الدرج الى داخل القصر ، بعد ان ادى التحية العسكرية . ولم يفرغ الفيكونت من شـد جواده الى سياج الدرج الحديدى حتى كان ناظر القصر قد عاد لاهثا وقد امسك بطنه الضخم باحـدى راحتيه ، فى حين كان يشق الهـواء بيده الاخرى كانها مجذاف يشق لجة الماء ، وهو يصيح :

ـ اهذا انت يافيكونت ؟ انه لامر عجيب ، ومفاجاة مدهشة .

ـ تحيتى اليك ياسيد سان ريمى .

ـ ان الآنسة « لافاليير » ستسر كثيرا برؤيتك ولا شك ! . ولكن تعال اولا .. فان صاحب السمو الملكى يتناول غذاءه .. ام ترى لابد من قطعه عليه ؟

ـ اعتقد هذا ! .. فربما كان التمهل بضع دقائق مما لا يسر الامير !

ـ اذا كان الامر كذلك ، فلابد من مخـالفة التعليمـات يا سيدى الفيكونت ! ومن حسـن الحظ ان صاحب السمو معتدل المزاج اليوم .. ان وراءك انباء هامة فيما اعتقد ؟ ولعلها انباء سارة ايضا ؟

ـ نعم .. انها انباء هامة جدا .. رائعة .

ـ تعال اذن واسرع !

فتبعه راءول ، وقد امسك قبعته ، واستولت عليه الرهبة لوقع مهمازه الحديدى على ارض القصر الذى خيم عليه صمت مطبق !

ودخل ناظر القصر حجرة الطعـــــام حيث جلس الامير والاميرة وضباط الحاشية ، فرفع الامير راسه اليه وهو يجذب بيده شريحة سميكة من سمك السليمان الفاخر ، وساله فى دهشة :

ـ لماذا تزعجوننا ؟

ـ لقد وصل رسول من باريس ، ولكن امامنا فسحة من الوقت حتى يتم مولانا غذاءه . وهو رسول من الامير كونديه .

وكان لهذه الكلمات اثر كبير فى جميع الســــامعين ، فتطلعوا بدهشة ، وقال الامير :

ـ ادخل الرسول فورا .. من هو هذا الرسول ؟

ـ من نبلاء هذا الاقليم ، ويدعى الفيكونت دى براجيلون .

ـ حسن جدا ! . ادخله ياسان ريمى !

وما ان نطق صاحب السمو بهذه الكلمة فى وقاره المعهود ، حتى رمق جلساءه على المائدة بنظرة خاصة ، فانسحبوا من الحجرة بغير انتظام . واتاحت لحظة الخلوة القصيرة للامير ان يتهيا لاستقبال الرسول بسحنة دبلوماسية ، فلم يلتفت الى الباب بل انتظر ان يحضر الرسول ويدخل حتى يصير فى مواجهته .

وتقدم الرسول حتى حاذى صاحبى السمو ، فانحنى للامير ، ثم انحنى للاميرة ، ثم انتصب واقفا فى انتظاره ان يبدأه بالكلام ، فرفع الامير اليه عينيه وقال :

ـ يبدو انك قادم من باريس ؟

ـ نعم يا صاحب السمو !

ـ وكيف حال الملك ؟

ـ جلالته فى اتم صحة يا مولاى ؟

ـ قيل لى انك قادم من عند الامير كونديه .

ـ اجل يا مولاى ، وقد كلفنى الامير ان اقدم لسموكم الملكى هذا الخطاب ، وان انتظر رد سموكم الملكى عليه !

وما فض سموه الملكى الخطاب والقى نظرة على مافيه حتى تهلل وجهه ، ثم تلاه لزوجته الاميرة بصوت مرتفع . فقد كان الخطاب يحمل الى الامير أورليان نبأ قيام الملك برحلة ، ويستاذن الامير فى نزول الملك بقصره عند مروره بمدينة بلوا ، حتى اذا لم يكن هناك مانع لدى الامير اتجه الركب الملكى هذه الوجهة ، أما اذا لم يكن الامير مستعدا لذلك لسبب من الاسباب ، فيمكن تحويل الركب عن طريق بلوا الى طريق سواه !

وكان الامير « كونديه » هو المشرف على هذه الرحلة ، فكان ذلك الخطاب مجاملة طيبة لعم الملك ، بعد ما كان بين الاميرين فيما مضى من جفاء .. وملأ السرور جوانح الاميرة ايضا . ولا سيما حين قال راءول « الفيكونت دى براجيلون » : « ان الركب الملكى قد يصل الى « بلوا » مساء اليوم نفسه » .

وشكر الامير الفيكونت ، وكلفه ان يحمل الى الامير « كونديه » تحيته وامتنانه ، فأسرع راءول الى جواده حتى يبلغ الرد للامير كونديه فى الوقت المناسب ، كى يتجه موكب الملك وبلاطه الى «بلوا» دون ابطاء !

وانطلق الفارس الجميل ينهب الارض بجواده من حيث جاء !



سار راءول فى الطريق جيـــدا ، فقد كانت ذاكرته تعيه وتكن له اجمل الذكريات .. لانه الطريق المفضى الى منزل الكونت دى لافير والده !

ولم يلبث راءول ان راى على قارعة الطريق ذلك البيت الذى تعلوه الابراج الصغيرة الرشيقة ، فوجف قلبه ، لانه لم يكن قد اكتمل بمرأى ذلك البيت العزيز منذ عام كامل ، قضاه فى صحبة الامير « كونديه » حتى صار من أقرب رجاله الى قلبه ، وكان يعلم تمام العلم أن والده قد شقى ببعاده شقاء عظيما ، لفرط محبته له ، وان رســـــائله الكثيرة الى ذلك الوالد لم تخفف عنه تلك اللوعة الا الا قليلا .

ولم يكن الحب الابوى هو كل ما تركه راءول فى « بلوا » من علائق القلب ، فهناك الآنسة « لويز دى لافاليير » التى كفلها جدها لامها السيد دى سان ريمى ، ناظر قصر الامير أورليان ! .. ولكن الواجب

الملح لم يتح له ان يتلبث فى « بلوا » ليرى حبيبته ، فأسرع عندئذ ، مارا ببيت أبيه ، كى يراه لمحة من الوقت . وما ان ترجل عن جواده امام البيت الجميل ، حتى اسرع يخترق الحديقة . ثم الردهة ، الى ان بلغ باب غرفة الكونت دى لافير ، فطرقها ودخل غير متريث حتى يسمع الاذن بالدخول ، فاذا الكونت جالسا الى مكتبه ، وأمامه بضعة اوراق يجرى بين سطورهما قلمـــــه الاحمر ، كأنه يصحح مسودات مذكرات او نحـو ذلك وما ان رفع الرجل النبيل عينيه الى الشاب الذى دخل عليه ، حتى احتواه بين ذراعيه متهللا ، وللدمع فى مقلتيه الصافيتين جولان ، ثم راجع نفسه فى اسباب تلك المفاجأة فسأل راءول فى لهفة :

ـ هل حدث فى باريس حدث يا فيكونت ، ام هى اجازة عادية ؟

ـ لم يحدث الا كل خير ياسيدى ، فالملك بسبيل الزواج كما قلت فى خطابى الاخير ، وهو فى طريقه الى اسبانيا لعقد ذلك الزواج على بنت ملكها . وسيمر بقصر « بلوا » كى يزور عمه الامير « جاستون اورليان » . وقد خشى الامير « كونديه » المشرف على هذه الرحلة الملكية ـ أن يؤخذ الامير اورليان على غرة ، فكلفنى ان احمل اليه الخبر كي يستعد لايواء البلاط الملكى هذه الليلة !

ـ هل قابلت الامير ؟

ـ اجل ، هو والاميرة وزوجته .

ـ وهل قابلت احدا آخر هناك ؟

ـ رايت الآنسة لافاليير مصادفة عند خروجى من القصر ، فقد كانت فى نافذة مشرفة على صحنه !

ـ اهى مصادفة حقا ؟

ـ اجل يا سيدى ! . انى اعلم انك حرمت على مقابلتها ، وما كنت لاحيد عن أمرك !

وخرج الوالد والولد الى الحديقة بعض الوقت ، ثم استاذن راءول فى مواصلة رحلته . وانطلق ليلحق بالركب الملكى عند مدينة «اينج» .

النزيل المجهول

انتشر في مدينة « بلوا » ، خبر حضور الموكب الملكي انتشار النار في الهشيم . وسرعان ما نشطت حركة الفنادق فيها الى حد عظيم ، ولا عجب فمثل هذه المناسبة هي فرصة العمر لاصحاب هذه الفنادق فكل اشراف البلاط وفرسانه لابد لهم من النوم والطعام ، لان قصر الامير اورليان لن يسع كل هذا الحشد الهائل من الناس !

وهناك في الشارع الجميل الذى كان يسمى في ذلك العهد « الشارع القديم » كان يقع بناء عتيق أنيق فسيح الارجاء ، له نوافذ ثلاث في طابقه الاول ، واثنتان في الطابق الثاني ، وطاق في الطابق الثالث . وكان هذا المنزل في عهد الملك الراحل « هنرى الثالث » مسكنا لمستشار في مجلس الدولة ، يقال أن الملكة « كاترين دى مديتشي » قتلته خنقا . وقد خلفه في سكنه رجل ايطالى اسمه « كروبول » اقام بالمنزل مطعما حسن الطهى ، واعد طوابقه العليا للنوم ، وسماه « فندق مديتشي » تيمنا باسم الملكة العظيمة التى زارته .. متناسيا انها خنقت صاحبه الاول : وقد اشتهر هذا الفندق خاصة بجودة المكرونة التى تقدم فيه !

وتلقى السيد « كروبول » نبأ مقدم الملك وبلاطه الى « بلوا » بفرح جنونى فلم يكن يسكن فندقه في ذلك الوقت غير نزيل واحد ، في نحو الثلاثين من عمره ، عليه كسوة بسيطة من القطيفة السوداء ، ذات ياقة بيضاء ، وله شارب خفيف اشقر اللون ، وعلى وجهه مسحة من الترفع تكاد تشبه الاستعلاء ، ولكنه اذا خاطب أحدا واجهه وحدق في عينيه في غير تكلف أو تصنع ، وان كان وميض عينيه الزرقاوين اقوى من أن يثبت امامه اى بصر !

وكان ذلك الضيف قد نزل منذ اليوم السابق في افخم جناح في

الفندق ، لانه الجناح الذى يشغل الواجهة كلها . وفيه صالون كبير وحجرة نوم واسعة .

ومنذ حل بالفندق لم يغادره ، ولم ينطق بكلمة واحدة ، حتى لقد تاذى من ذلك السيد « كروبول » لانه يحب الكلام ويتعشق النادرة اللطيفة والنكتة البارعة . كما ساءه من هذا النزيل الصامت شىء آخر اشد ايلاما له من صمته هو قلة اقباله على الطعام الذى يقدمه اليه فى حجرته ..

اما فى هذا الصباح ، فقد استيقظ هذا النزيل فى ساعة مبكرة ، فجلس الى نافذة حجرته وكأنه يرقب باهتمام حضور شخص معين .. فلما علت الشمس كبد السماء سمع صيحات فزع كثيرة ، تنم عن مذبحة كبيرة فى حظيرة الدواجن ، ثم لم يلبث ان سمع صوت اقدام تصعد السلم الخشبى الصغير المفضى الى الحجرة ، فظن النزيل أن صاحبه الذى ينتظر مقدمه قد حضر دون ان يراه قادما فى الطريق ولكن الذى فتح الباب لم يكن الا السيد كروبول ، فتقدم النزيل وهو يعالج الابتسام . وانحنى له انحناءة عميقة وتنحنح وقال :

ـ مولاى ! . لقد وقع حادث هذا الصباح غير أوضاع الامور !

ـ وما هو ؟

ـ ان جلالة الملك لويس الرابع عشر سيصل الى بلدتنا هذا اليوم ، وسيقضى مع بلاطه الليلة هنا !

ـ ملك فرنسا فى « بلوا » .. ؟

ـ انه فى الطريق اليها يا سيدى ! فهل سيبقى سيدى هنا اليوم ؟

ـ هذا سبب أدعى لبقائى !

ـ ولكن هل يحتفظ سيدى بالجناح كله ؟ ان زحاما شديدا سيطرا على الفنادق فى هذا اليوم ، وسيكون الضغط كبيرا جدا !

ـ ماذا تعنى يا هذا ؟

ـ اعنى ان الاسعار التى اتفقنا عليها مع سيدى امس لم تعد تصلح لليلة ! ..

ـ لقد كان الاجر امس جنيها واحدا بالاكل ، اما اليوم فالثلاث غرف اجرها ستة جنيهات بالنسبة للظرف الراهن ! .. ولسيدى

كل الحرية فى ان يتخلى عن حجرتين ويحتفظ بواحدة بجنيهين اذا شاء ، ولا حرج عليه فستة جنيهات مبلغ باهظ !

فاحمر وجه الغريب ثم اكفهر ، واخرج من جيبه كيس نقود لاحظ السيد كروبول انه هزيل يشكو الخواء ، فاخرج منه خاتما لمينا كي يبيعه لبعض التجار اليهود ويقتطع حقه منه كما قدره ، ويأتيه بالباقي . فانحنى كروبول شاكرا وانصرف بالخاتم ، وعاد الغريب الى النافذة يطل منها على الطريق مستغرقا فى الصمت !

ومر الوقت سريعا ، والاستعدادات قائمة على قدم وساق ، من مواكب وانوار ومشاعل ورايات ، وحينما عاد « كروبول » ودخل الحجرة على النزيل الغريب ، لم يلتفت هذا اليه ، لولا ان نبهه الى وجوده ، ثم قال بادب :

ـ لقد تم تقويم الجوهرة لدى جوهرى سمو الامير أورليان الخاص ، فقدرها بمبلغ ٢٨٠ جنيها .

ـ وهل احضرت المبلغ !

ـ اجل يا مولاى ، واحتطت لكم فشرطت على الرجل ان تظل الجوهرة تحت تصرفكم مدة شهر .. وها هو ذا المبلغ ياسيدى بعد خصم اجر الليلة !

فاشار الغريب الى المائدة باصبعه دون ان ينطق، فوضع «كروبول» المبلغ فوقها ، واستدار الغريب ليطل من النافذة كما كان !

وبعد قليل سرت فى الجماهير المتجمعة فى الشارع همهمة عالية ، ثم تصايح الناس :

ـ الملك ! الملك !

ودوت اصوات الابواق ، ومر الموكب بين الجموع الهاتفة .. فاذا فى المقدمة كتيبة من فرسان الحرس ، ثم كتيبة من الاشراف ، من ورائها عربة الكردينال « مازاران » تجرها اربعة جياد سوداء . ومن وراء العربة حجاب الكردينال ، ثم عربة الملكة الوالدة ، يحف بها رجال حاشيتها الخاصة . واخيرا جاء الملك على صهوة جواده المحجل ، يحيى الهاتفين فى النوافذ والشرفات بابتسامة عذبة ترتسم على محياه النبيل الوسيم الوضىء بماء الشباب !

وعلى جانبى الملك ، من ورائه بخطوة واحدة ، الامير « كونديه » والدوق « داينو » وعشرون نبيلا من ابناء كبار الاسر الفرنسية !

فلما وقع بصر صاحبنا الغريب المطل من نافذة الفندق على الملك الشاب ، دق قلبه دقا عنيفا ولمعت عيناه !

وانتهى مرور الموكب ، ليشق الجموع المحتشدة فى اعقابه من الاهلين فارس شيخ ، ما ان رآه صاحبنا الغريب الشاب حتى اغلق النافذة ، ولم يلبث الفـــــارس الشيخ أن صعد السلم ودخل عليه الحجرة بغير كلام . فاحتـــــواه الغريب الشاب بين ذراعيه وقدم له مقعـــدا ، بيد أن الشيخ تردد فى الجلوس ، ثم أصر على الوقــوف قائلا :

ـ أأجلس فى حضرتك يامولاى ؟. هذا محال !

ـ أرجو يا « بارى » أن تجلس !

ـ لن اجلس قبـــل ان ابلغك أولا نتيجة بعثتى التى قطعت فى سبيلها آلاف الفراسخ برا وبحرا !

ـ ماذا حدث ؟ . اخيرا جئت به ام شرا ؟

ـ لقد رفض الجنرال مقابلتى ، ولكنه تلقى رسالتى ، ثم اعادها الي مع حارسه الخاص ، ليبلغنى أن اغادر انجلترا فورا والا عاقبنى عقاب الجاسوس الخائن !

ـ وا أسفاه ! . لقد تأزمت الامور ، واضطررت الى بيع خاتمى كى احصل على مال والا طردنى صاحب الفنـدق .. وامى واختى لا تجدان القوت .. فاما اسعفتنا السماء بمعجزة والا فهو الهـلاك المحقق !

ـ مولاى ! بحق السماء ! لا تقنط من رحمة الله ، ولا تضطرب هكذا !

ـ الحق معك يا « بارى » .. يجب ان افعل شيئا !

ـ ثم انتضى معطفه وسيفه ، فصاح الشيخ :

ـ الى اين يا مولاى ؟

ـ الى اين ! .. الى حيث افعل ما فعلته امى واختى .. فانهما تعيشان على الصدقة ، وانى اذهب الآن لطلب الصدقة كى أعيش وتعيشان !

وانطلق خارجا من الحجرة وهو يطلق ضحكة كالحة !

وصل الملك الى قصر آل اورليان فى « بلوا » فوجد أمام الباب عمه الدوق جاستون وزوجتــه ، ومن حولهما رجال حاشيتهما الكبيرة ، وقد ازدانت شرفات القصر بالمشاعل ، وازدحمت بالعقائل والاوانس. فراحت العيون تلتهم ملك فرنسا الشاب وتتملى من وسامته ووضاءة محياه . حتى اذا أصابت كفايتها منه تحولت تبحث عن ملك فرنسا الآخر الذى يناقض الملك الشاب فى كل شىء ، فهـــو هزيل شاحب اللون علت به السن حتى كادت تحنى ظهره بعد أن أشعلت رأسه شيبا ، وذلك هو الكردينال « مازاران » سيد فرنسا لعهد الوصاية وحاكمها المطلق !

ولم يكن الملك طويل القامة ، بيد ان شبابه كان يغطى على هذا النقص ، كما تغطى عليه رشاقة حركاته واشاراته !

وجلس الضيوف فى الصــــالون الكبير ، ثم تولى صاحب السمو الدوق اورليان تقــديم رجال حاشيته وزوجاتهم الى الملك والملكة الوالدة والى الكردينال ، فلاحظ الملك أن والدته كانت تجهل كما يجهل اسماء معظم هؤلاء ، فى حين كان الكردينال يعرفهم جميعا بغير استثناء ، فيخاطب كلا منهم بما يهمه من الامور ، فيسأل هذا عن اراضيه ، ويسأل عنهم باســـمائهم ، مما كان له أحسن الوقع فى نفوس والديه أو جده ، ويسمى من يسأل عنهم بأسمائهم ، مما كان له احسن الوقع فى نفوس الجميع ، على عادة أهل الريف من السرور بالمجاملات الشخصية وان بدت فى ظاهرها هينة لا يقام لها وزن !

وثارت فى نفس الملك غيرة شديدة من الكردينال الشيخ ، لانه رأى فيه منافسا شديدا لن يشعر مع وجوده بتفرده على العرش !

وقدمت المرطبات بعد ذلك ، فأصاب الملك منها فى شهية عظيمة تنتظر ممن كان فى شبابه وصحته . أما الكردينال فلم يصب منها شيئا ، ولكن الملك الشاب لم يلاحظ ذلك الحرمان القاسى الذى منى به وزيره الشيخ كما لاحظ من قبل ما يتمتع به من سلطان ونفوذ . وما درى أن الوزير الشيخ لم تفده سطوته شيئا فى لقمة من الطعام يتشهاها ولا يقدر على تناولها !

ونهض الملك بعد ذلك يتمشى بين الصفوف ، فلاحظت النساء أن له نظرة عارمة تنبىء عن رغبة فى السيطرة وجراة فى الاستحواذ على

رغائبه . اما الرجال فلاحظوا عليـــه استعلاء وزهوا وحبا للتسلط والسلطان .

والتفت الملك الشاب الى زوجة عمه بعد جولة أو جولتين وقال لها بصوت خافت ، وعلى شفتيه ابتسامة ساخرة :

ـ لقد علمني استاذ الجغرافيا ان « بلوا » لا تبعد كثيرا عن باريس .. ولكني أراه قد خدعني في هذا الامر !

ـ كيف كان ذلك يا ابن اخي ؟

ـ ان الزى الحـــديث الذى يظهر فى العــاصمة يستغرق بضع سنوات حتى يصل الى هنا .. انظرى مثلا هؤلاء الاوانس .. انى أرى فى بعضهن حظا من الجمال . ولكنهن يظهرن كالعجــائز الشمطاوات ، أو كالقبيحات لتخلفهن عن ركب الزى الحديث عشر سنوات !

ـ لست ارى هذا !

ـ انظرى يا عمتى الى هذه المجموعة من النســـــاء وما يزين به شعورهن من زينة بلهـــاء . ثم انظرى الى هــذا الثوب الابيض البسيط . انه لفتاة ربما كانت من وصائف شرف والدتى ، وان كنت لا اعرفها ، الا ان طريقة لبسها تنبىء عن ذوق سليم ينطق بأنهــــا باريسية صميمة ، وانها امراة لا شماعة ثياب !

فضحكت الاميرة أورليان وقالت :

ـ اسمح لى يا ابن اخى العزيز ان اقول لك : ان علم فراستك قد خانك فى هذه المرة ، فهذه الآنسة التى امتدحتها لا تمت لاهل باريس بصلة . وهى ليست من وصيفات جلالة الوالدة ، بل من وصيفاتى انا ! ..

ـ احقا ؟

ـ حقا وصدقا . اقتربى يا لويز !

واقتربت لويز على استحياء وقد اطرقت وغضت طرفهــا امام نظرات الملك ، فقالت الاميرة وهى تقدمها للملك الشاب :

ـ الآنسة لويز فرانسواز دى لابوم ليبلان ، كريمة الماركيز دى لافاليير .

وانحنت الفتاة برشاقة برغم ارتباكها الشديد فى حضرة الملك . اما الملك فقد ابتسم لها وقد فتنه ما وجده فيها من خفة وجمال .

وصدحت الموسيقى بعد ذلك ، فجلس الملك فى مقعده الكبير وقد غلبت عليه السآمة لما يسود الحفل من التــكلف ، وجعل ينظر الى الى والدته بين الحين والحين كمن يسالهــا متى ينتهى سجنه ، ثم راح يمد ساقيه ويثنيهما شأن الفتى المهذب الذى يريد ان يقــاوم الكسل ويغالب التثاؤب . ثم بدرت منه لفتة الى الباب ، فرأى رجلا طويل الهامة عظيم القامة فى وجهه جهامة وفى نظرته صرامة ، وعليه كسوة ضباط فرسان الحرس ، وفوق رأسه قبعة رمادية يزينها ريش احمر فادرك انه يقف فى مكانه هذا فى نوبة الخدمة العسكرية ، ولو انه كان مدعوا حضر بصفته الشخصية لكانت قبعته فى يده وكأنما لاحظ هذا الضابط أن الملك يطلب خـدمة خاصة ولا يريد التصريح بها ، فعول على أداء تلك الخـدمة للملك من تلقاء نفسه ، وصــاح بصوت جهورى كصيحة القائد فى معمعان المعركة :

ــ خدمة الملك !

وكان لهذه الكلمات اثرها ، بعد ان غطى دويها على اصوات الموسيقى والاناشيد التى كانت تتردد فى القاعة ، والتفتت الملكة والكردينال متطلعين الى الملك الشاب غير انه اســتمد من صيحة ضابط حرسه جسارة واقداما فنهض من مكانه واتجه الى الباب .

وسألته امه : « امنصرف انت يا ولدى ؟ » فأجابهــا : « اجــل يا سيدتى ، فانى أشعر بشىء من التعب ، وفى عزمى أن أكتب الليلة بضعة رسائل ! » .

فلاحت على شفتى الكردينال ابتسامة ، واسرع رب القصر وربته الى اعطاء الاوامر للحشم والخدم ، ثم صحب الملك الى الباب وسار معه بين صفين من حرس الفرسان يقف فى آخرهمــا ذلك الضابط الجسور وسيفه مجرد فى يده . فلما وصل الملك الى جناحه الخاص ودعه عمه ، فشكر له الملك حسن ضيافته واكرامه وفادته ، ثم [illegible] !

وسار فى حراسة الامير عشرة من الفرسان العشرين حتى القاعة الكبرى التى لم تزل غاصة بالناس برغم انصراف الملك ، أما العشرة الآخرون فأقامهم الضابط لحراسة جناح الملك ، ثم قام هو نفسه بالتفتيش فى عناية وحذر ، واستقر بعد ذلك فى الحجرة المفضية الى مخدع الملك .

واستقر الملك فى مخدعه يرقب من نافذته تلك الانوار المتلالئة فى كل مكان ، حتى اذا مضى من الوقت عشر دقائق ، لاحظ حركة غير عادية فى الطرف الاخر من القصر ، استنبط منها ان الكردينال قد آوى الى مخدعه فى ذلك الجناح البعيد :

وبدا كان الناس جميعا قد نسوا امر ذلك الملك الذى اعتمد بيده على حافة النافذة المظلمة وراح يتامل جناح الكردينال فى اكتئاب . أجل نسوه جميعا ، اللهم الا ذلك المجهول الغريب الذى عرفناه نزيلا فى فندق ميديتشى ، ورأيناه يفارق صاحبه الشيخ « بارى » مجللا بمعطفه الاسود . وقد ركب ذلك الغريب الى قصر الولايات ، وراح ينظر حوله الى المحتشدين من عامة الناس متطلعين الى الحفل ، فلما راى انه ما من انسان يحرس الباب الكبير ، اخترقه وعبر صحن القصر حتى وصل الى الدرج الكبير الذى كان يفضى الى مخدع الكردينال . ولعل الذى جذبه الى هذا الجناح لالاء المشاعل الكثيرة ، وكثرة الحراس والحجاب الذين كانوا يبلغون زهاء المائة . ثم تقدم يرتقى الدرج لا يلوى على شىء ، لولا ان أوقفه عند حده حارس شاكى السلاح صاح به ! الى اين يا صاح ؟

فأجاب الغريب بهدوء وشمم : « انى ماض الى جناح الملك ! » .

فأشار الحارس الى الجهة الاخرى وقال فى غير اكتراث : « من السلم المواجه ! » .

فاتجه الغريب الى تلك الناحية فلم يجد ضجة ولا مشاعل ، بل ظلمة سائدة يضطرب فيها ديدبان كانه شبح يلوذ باكتاف الليل ، وكان هذا الحارس من الفرسان العشرين المكلفين بحراسة شخص الملك ، فصاح بالقادم :

« من هناك ؟ » . فاجاب الغريب : « صديق ؟ » .

فسأله : « ماتريد ؟ » . فقال الغريب فى هدوء : « اريد محادثة الملك ؟ » .

ـ هذا غير ممكن على الاطلاق يا سيدى العزيز ، ان الملك قد آوى الى فراشه ونام !

ـ يجب ان اكلمه مهما يكن من امر !

ـ وانا اقول لك ان ذلك غير ممكن ، وان عليك ان تنصرف فورا .

ـ اهذه هى الاوامر الصادرة اليك ؟
ـ لست مسئولا امامك لاؤدى حسابا عما افعل !
ـ ايها السيد الفارس .. االنت من النبلاء ؟
ـ ان لى هذا الشرف !
ـ حسنا .. اننى ايضا من النبلاء ، واذن احسب ان من حقى عليك كزميل ان تعاوننى على اداء مهمتى .
ـ تكلم يا سيدى بما عندك ، واذا كان فى مقدورى ان اعاونك فلن احجم .
ـ شكرا .. اننى اريد ان اتحدث قليلا الى ضابطك المعين فى هذا الجناح .
ـ اما هذا فحبا وكرامة . تفضل يا سيدى بالصعود :
وصعد الغريب بعد ان حيا الديدبان ، الذى صاح باعلى صوته :
ـ زائر لحضرة الملازم !
فراحت هذه الصيحة تنتقل من حارس الى حارس مستبقة الغريب حتى نبهت الضابط من نومه قبل وصوله ، ففرك عينيه وتقدم نحو الغريب ثلاث خطوات وساله :
ـ ماذا استطيع لخدمتك يا سيدى ؟
ـ االنت ضابط حرس الفرسان المنوب هنا ؟
ـ لى هذا الشرف .
ـ سيدى .. يجب ان اتحدث الى الملك باى شكل من الاشكال !
واخذ الضابط يحدق فى محدثه ، فلم يجد عليه شيئا من امارات الجنـــون ، بل راى فيه برغم ملابسه البسيطة ما ينبىء عن هيبة وعراقة ومكانة ، فقال له :
ـ يدهشنى يا سيدى ان مثلك يجهل ان الناس لا يدخلون على الملك من غير استئذان !
ـ بل سياذن الملك يا سيدى .
ـ اسمح لى يا سيدى ان اشك فى هذا ، فالملك قد دخل مخدعه منذ ربع الساعة ، واعتقد انه فى هذه اللحظـــة بسبيل ان يخلع ملابسه . ثم ان الامر قد صدر بمنع الاستقبال هذه الليلة !
ـ متى عرف الملك من اكون رفع هذا الحظر !

ـ احسب أن من حقى اذا قبلت ان أستأذن لك ، ان أعرف على الاقل اسم السيد الذى استاذن له ؟

ـ تستطيع أن تستأذن على ملك فرنسا لصاحب الجلالة شارل الثانى ملك انجلترا واسكتلنده وايرلنده !

فاطلق الضابط صيحة دهشة ، وتراجع خطوة الى الوراء ، وتنازعته عواطف شتى وجد صعوبة شديدة فى مغالبتها ، ثم قال لمحدثه :

ـ عفوا يا مولاى ! .. كان ينبغى لى أن أعرفك لاول نظرة !

ـ هل رايت رسمى من قبل ؟

ـ كلا يا مولاى .. !

ـ اذن قد رايتنى فيما مضى فى بلاط فرنسا قبل أن يطردونى من أراضيها ؟

ـ ولا هذا أيضا يا مولاى !

ـ كيف اذن تعرفنى وانت لم ترنى من قبل شخصا ولا رسما ؟

ـ اى مولاى ! . لقد رايت جلالة والدك الملك ذات يوم رهيب !

فعبرت بوجه الشاب سحابة قاتمة ، نفضها عن نفسه وقال :

ـ أما زلت ترى مشقة فى الاستئذان لى ؟

ـ عفوك يا مولاى ! فما خطر ببالى ان يضم هذا الرداء المتواضع مثل شخصك الكريم العظيم . اما الآن ...

واسرع الضابط الى مخدع الملك ، ولكنه ارتد عند الباب سائلا :

ـ اترغب جلالتك فى أن تكون المقابلة سرية ؟

ـ لست أحتم ذلك ، ولكن اذا كان هذا ممكنا فهو أحسن ولا شك !

ـ هكذا ممكن يامولاى ! لاننى استطيع الاغضاء عن اخطار كبير الياوران ، ولكن يجب فى هذه الحالة أن تتنازل جلالتكم بتسليمى سيفكم اولا !

ـ الحق معك ! فقد نسيت ان كائنا من كان لا يدخل مسلحا على ملك فرنسا .. هاك سيفى يا سيدى !

واسرع الضابط فطرق باب مخدع الملك ، فلما فتحه الوصيف الخاص ، قال له الضابط :

ـ صاحب الجلالة ملك انجلترا واسكتلنده وايرلنده !

فكر الوصيف ذلك النداء على أسماع الملك ، واذا بباب المخدع يفتح على مصراعيه ويبرز منه لويس الرابع عشر بغير قبعـــة وبغير سيف ، مفتوح الصدار ، وقد بدت عليه علائم الدهشة ، فتقدم وهو يصيح مشيراً بيديه الى الضابط والوصيف كي ينصرفا :

ــ انت هنا يا أخي العزيز في بلوا ؟

ــ لقد توجهت يامولاى الى باريس على امل رؤية جلالتكم ، ولكن الاخبار جاءتني في الطريق اليها بقرب حضوركم الى هذه المدينة ، فاقمت بها كي احظى برؤيتــكم ، لان لدى امرا هاما جــدا أريد ان احدثكم فيه .

ــ هل يصلح هذا المكان لذلك الحديث أيها الاخ ؟ ام ننتقل الى مكان آخر ؟

ــ بل يوافقني كل الموافقة يا مولاى ، فلا اظن ان احدا يسمعنا :

ــ لقد صرفت ضابطي ووصيفي ، واما هذا الحاجز فوراءه حجرة صغيرة خالية تفضي الى قاعة الانتظار التي مررتم بها جلالتكم ولم يكن بها الا الضابط .

ــ هذا صحيح يا مولاى .

ــ تكلم اذن يا أخي العزيز ، فاني مصغ اليك .

ــ أبدا يامولاى بالتماس عطف جلالتكم على آل بيتي التعساء .

فتدرج وجه ملك فرنسا وقرب مقعده من مقعد ملك انجلترا ، ثم قال له هذا :

ــ لست اراني يا مولاى بحاجة الى ان أروى لجلالتــكم تاريخنا الفاجع وقصة عرشنا المنزوع !

ــ يخجلني يا أخي ان أصــارحك بأن الــكردينال قلما يجرى على أسماعي حديث السياسة ، وانه حرم على دراسة التاريخ الحــديث والمعاصر . ولهذا اراني مضطرا الى رجاء اخي الملك شارل ان يعدني جاهلا كل الجهل بهذه الامور وان يفصلها لي كي أحيط بها علما !

ــ حدث في سنة ١٦٥٠ ، اي منذ عشر سنوات تماما ، وقد أوفت سني على العشرين سنة ، ان ذهبت الى ادنبره عاصمة اســكتلنده اثناء غياب كرومويل في ايرلنده ، وهناك توجت بتاج آبائي . وبعد سنة واحدة اتجه نحونا كرومويل ، واهل اسكتلنده قوم غلاظ الاكباد

لايؤمن لهم جانب . وقد حملونى على التنكر لديانة آبائى ، ولما أصر صديقى اللورد (مون روز) على الكثلكة اعدموه شـــنقا غير مبالين بغضبى . وبهؤلاء الجنود لقيت كرومويل ، فاخترقت جيشه وغايتى ان أصل لندن قبله ، ولكنه لحق بى فى روشســتر ، وكان ذلك فى سبتمبر سنة ١٦٥١ .. وهناك حلت بى الهزيمة ، وسقط من حولى الفان من الرجال قبل ان افكر فى التراجع ، واخيرا لم اجد بدا من الفرار . ومنذ ذلك اليوم تحولت حياتى من تاريخ الى رواية ، فانا لائذ باكناف الفيافى ، مستخف فى زى الحطابين تارة ، مختفيا فوق اغصان الشجر فى الغابات تارة اخرى . وقد قضيت ليلة كاملة ونهارا بأسره بين فروع شجرة بلوط ضخمة ، فسميت منذ ذلك اليوم شجرة البلوط الملكى . وكانت لى وقائع منذ ذلك الفرار اغرب من الخيال ، وربما دونتها يوما عظة وتنويرا للناس ؟

ــ ولكن خبرنى ياأخى ، هل لاتزال بعد ذلك اللقاء السيىء الذى منيت به فى انجلترا تمنى النفس باسترداد عرشك فيها ؟

ــ لقد تبدلت الاحوال بعد موقعة روشستر يامولاى ، فقد مات كرومويل فى ٣ سبتمبر سنة ١٦٥٨ ، فى يوم الذكرى الثامنة لموقعة روشستر ، وتبعه على العرش نجله الذى لم يلبث أن اعتزل زهــدا فى السلطان والحكم فى ابريل من العام الماضى ، وهكــذا يامولاى ، اختفى من المسرح ذلك الشخص الذى اجتمعت فى يده ازمة الامور ، وتنازع السلطان القائدان : لامبرت الذى يريد لنفسه عرشا ، ومونك الذى يزعم انه يمثل ارادة الامة التى عبر عنها برلمانها الجمهورى واخذ الرجلان يتنازعان طيلسانى الملكى . ولو أن فى يدى مليونا من الفرنكات الذهبية لرشوت أحدهما فانضم الى جانبى . ولو أن معى مائتين من فرسانك الابطال يامولاى لطردتهما جميعا من قصر (هوايت هول) كما طرد المسيح باعة الحمام والصيارفة من صحن الهيكل !

ــ انت اذن قد اتيت تطلب منى ...

ــ اطلب عونك ياأخى !. اطلبه اليك باسم الاخوة فى الملك . واطلبه اليك باسم الاخوة فى الدين . عونك يامولاى اما نقدا واما رجالا وعددا. ولا يمضى شهر واحد حتى اكون قد استرجعت عرش آبائى ، فالناس فى بلادى قد سئموا رائحة الدماء !

وصعدت الدماء حارة الى وجه شارل الثانى وهو يستجدى ، ولم يكن لويس الرابع عشر اقل منه شقاء بذلك الموقف ، فقد كان يرتجف فى مقعده ولا يدرى بماذا يجيب ، فسكت شارل الثانى لحظة ثم قال :

ـ اجبنى يامولاى !. فانى انتظر جوابك كما ينتظر المتهم حكم الاعدام أو قرار البراءة .. فهل تقضى على يامولاى بالموت ؟

ـ انك تطلب منى مليونا ياأخى ، منى انا ، وأنا لم أملك فى حياتى ربع هذا المبلغ ، فأنا لا أملك شيئا ، ولست انا ملك فرنسا أكثر مما انت ملك انجلترا ، فما انا الا محض اسم ، صفر عليه طيلسان من المخمل مرصع بأزهار الزنبق البيضاء ، لا أكثر . فلا حول لى ولا طول .!

ـ أهذا ممكن ؟

ـ لقد تحملت الوانا من الهوان لا تخطر لك ببال . فكم من ليلة نمت فوق فرش بالية ، وكم من مرة طلبت عربة جديدة فأبوا على الا العربات التى اكل عليها الدهر وشرب ، بل أكلت الفئران جوانبها لكثرة ما أهمل شأنها لسبب قدمها !.. وكم من مرة طلبت طعاما فلم يقدم لى الا بعد اذن الكردينال والان لى من العمر اثنتان وعشرون سنة ، وقد بلغت رشدى ، لكنى مازلت مجردا من صولجان الحكم ومفاتيح الخزانة وشئون الحرب والسلام !. الق نظرة على جناحى المهجور المهمل ، ونظرة على جناح الوزير الذى تحف به آيات التكريم . هناك فى ذلك الجناح القصى من القصر ، لا هنا ايها الاخ ، يقيم ملك فرنسا الحقيقى الكردينال مازاران !

ـ انى اذن لمن الهالكين !. لقد كاد هــذا الكردينال يقتل امى واختى ، اى عمتك كريمة هنرى الرابع وحفيدته ، ولولا أن برلمان باريس تعطف عليهما بخشب للتدفئة وخبز للاكل ، لهلكتــا بردا وجوعا !.. ولا عجب اذن مادام مصيرى فى يده ان اهلك انا أيضــا بردا وجوعا ، انا حفيد هنرى الرابع كما أنك حفيده !. على انى شاكر لك على كل حال حسن شعورك ، ومقدر عذرك !

فرفع لويس الرابع عشر راسه الى أعلى ، ثم قال فى اباء :

ـ امليونا تريد ياأخى ؟

ــ اراه حسبى !. وما هو بقليل !. اذا لم يتيسر فمئتا فارس فرنسى .

ــ هذا عدد قليل ، لا يتجاوز الكتيبة .

ــ ان فى اسرتنا تقليدا موروثا ، مؤداه ان اربعة فرسان مخلصين كادوا ينقذون من الاعدام والدى المسكين ، برغم أنف البرلمان والجيش.

ــ واذا أعطيتك المال او الرجال ، هل تعتبرنى قــد اديت حق الاخوة ؟

ــ بل اكون مدينا لك مدى الحياة ، ولتكونن انجلترا شــقيقة لفرنسا مادمت على عرشها ، لانك كنت نعم الاخ لملكها المنكود !

ــ انتظرنى اذن برهة فانى ذاهب من فورى لمقابلة الكردينال كى التمس منه ماصنعت نفسى عن التماسه لنفسى حتى اليوم !

فشل الملك

ما كاد الملك لويس الرابع عشر يغادر جناحه الخاص فى قصر عمه متجها الى جناح الكردينال مازاران ، حتى برز ضابط الحرس من الحجرة الصغيرة الملاصقة للغرفة التى اجتمع فيها الملكان ، ثم اخذ يتمطى ليزيح عن نفسه جمود عضلاته ، وقد التمعت عيناه ببريق يخطف الابصار ..، فليس من شك اذن انه سمع مادار بين الملكين بالتفصيل !

وكان الكردينال فى هذه الساعة مستلقيا فوق فراشه ، يغالب آلام النقرس التى تعاوده ... وامامه مائدة خاصة يكتب عليها وهو راقد ، وظهرت على وجهه آيات الفرح ، لان الورقة التى أمامه تبين له آنه استطاع جمع اثنين واربعين مليونا فى خزائنه ، بفضل شحه وتقتيره ، وهو مع هذا لايقنع باقل من خمسين ، ويألو على نفسه ان يصل الى هذا الرقم فى القريب العاجل ... سادرا فى خطة ادعاء الافلاس ، وامتصاص دماء الناس بالضرائب المباشرة وغير المباشرة !

وكانت مفاجاة كبرى للكردينال أن يزوره الملك الشاب فى هـذه الساعة ، فأسرع يخفى اوراقه بين اغطية الفراش ، ويعتذر للويس الرابع عشر عن استقباله اياه بهذه الصورة .

وارهف الوزير الشيخ اذنية لسماع ما حدا بالملك الى الحضور ، فشرع الملك يعرض قضية شارل الثانى ووجوب تأييده فى استرداد عرشه المفقود ، فسخر مازاران من هذا الراى ، وبين للملك انه حلم بعيد المنال . ثم ذكره بأن هناك محالفة بين فرنسا وحكومة انجلترا الجمهورية ، يتحتم بمقتضاها الا يأوى ملك فرنسا أحدا من الاسرة المالكة الانجليزية ، وقد طرد شارل من فرنسا منذ سنوات لهـذا

السبب . واذن يحسن بالملك لويس أن يطرده مرة ثانية ، ولا قيمة للقرابة بينهما امام اعتبارات السياسة ومصالح الدولة !

ولما فاتحه لويس الرابع عشر فى امر المليون ، قهقه « مازاران » قال له :

ــ ان خزائنى مدينة باربعين مليونا !.. ولا سبيل مطلقا الى تدبير هذا المبلغ مهما تكن الاحوال !

فقال له الملك : « تذكر ياسيدى أن هذا سيسبب لى متاعب كثيرة اذا افلح اخى شارل الثانى فى استرداد عرشه بغير معاونتى ، اعنى بفضل مساعدة هولندا مثلا كما وعده ملكها ! »

فقال الكردينال : « لك ان تطمئن يامولاى ، فان هذا لن يحدث .. وانا المطلع على السياسة الدولية واسرارها .. ان انجلترا الان فيها قائد اسمه (مونك) لست انا فى جانبه شيئا مذكورا سواء فى السياسة او الحرب ... فهو قزم داهية اريب لا سبيل الى غلبته بحال ! »

ــ الا آمل اذن فى الوفاء بوعدى فى شأن ذلك المليون ، ولو برهن جواهر تاجى ؟

ــ هذا غير ممكن يامولاى ! وانى لآسف ، ومستعد لاجابة اى طلب آخر !

ــ اننى اعفيك من هذا الوعد ، واطلب اليك طلبا آخر ...

ــ ليطلب مولاى مايشاء ...

ــ اطلب مائتى فارس من رجالنا الشجعان لمساعدة شارل فى استرداد عرشه !

ــ هذا رابع المستحيلات يامولاى ، فالمعاهدة بيننا وبين انجلترا تحول دون ذلك !

ــ لكن المطلوب ليس اكثر من كتيبة واحدة لا جيش !

ــ ان كسوة عسكرية واحدة تعد بمثابة الجيش كله فى مثل هذه الحالة . ولابد من مراعاة المصلحة العليا للدولة والا زج ذلك بنا فى الحرب برغم انوفنا . وذلك امر لانستطيع مواجهته مهما تكن القرابة التى تربط جلالتكم بالامير شارل .

فلم يجد الملك الشاب فائدة من الاسترسال فى الكلام ، وانصرف كاسف البال الى جناحه الخاص ، فلما رآه الملك شارل على هـذه الحال ادرك جلية الخبر ، وقال له :

ـ لا فائدة !. اليس كذلك ؟. كنت اعلم هذا .. ولكنى شاكر لك على كل حال حسن نواياك نحوى !

ـ انها نوايا عقيمة لا خير فيها للاسف يا اخى !.. ولكنى الح عليك أن تبقى معى ، واقطعك اى قصر تختاره من قصورى ، واجعل لك حاشية ، واجرى عليها ارزاقا ... وتنتظر سنة اخرى حتى اتسلم سلطاتى الدستورية واعطيك ماتشاء من مال ورجال !

فاستخلص الملك شارل يده من يد الملك لويس وقال :

ـ اشكر لك ياأخى شعورك الكريم من كل قلبى . ولكنى وقد طرقت باب اكبر ملوك الارض ورجعت بالخيبة ، لا ارى مندوحة من التوجه الى ملك السماء ، لعل معجزة تنقذنى من هذا البلاء !

ثم انصرف رافع الراس فى اباء وشمم .. فلما مرق امام ضـابط الحرس تبعه بالمشعلة حتى وصل الى الباب الخارجى ، فالتفت الملك التعس اليه وصافحه شاكرا ثم قال :

ـ لقد عرفت ابى .. ولعلك تصلى من اجله .. فاذا كان ذلك كذلك ، فارجو الا تنسانى انا ايضا فى صلواتك .. فانى مثله شقى فى حاجة الى الصلاة !

ثم ابتلعه الظلام .. وترك الضابط جامدا فى مكانه ، يجذب شعر شاربه فى عصبية ظاهرة !



لم يأو الملك لويس الرابع عشر الى فراشه بعـد ان تركه شارل الثانى خائب المسعى ، ثم دعا اليه ضابط الحرس ، فلما دخل عليه صرف وصيفه الخاص من الغرفة باشارة منه ، ثم سال الضابط :

ـ لماذا صحت هكذا فى قاعة الاستقبال « خدمة الملك » ! « فرسان الملك » ، من غير ان يصدر اليك الامر ؟

ـ بل صدر الامر يامولاى !

ــ ممن ؟

ــ منكم يامولاى ، فليس من الضرورى ان يصدر الامر باللفظ ، بل ربما يكون فى الاشارة الكفاية ، أو فى لمحة العين . وان الخادم الذى لا يعى من أمر مولاه الا ما يطرق الآذان لهو خادم سوء لا خير فيه . وقد رايت فى نظرة جلالتكم ما يدل على الضيق والرغبة فى الخلاص !

ــ هذا حسن !

ــ الدى مولاى أوامر أخرى ؟

ــ كلا ياسيدى !. فى وسعك ان تنصرف !

ــ هل يأذن لى مولاى فى كلمة ؟

ــ تكلم بما تريد !

ــ ان الموضوع الذى اريد مخاطبة مولاى فيه ليست له أهمية بالنسبة اليه . ولكنه بالغ الاهمية لى أنا ، فأرجو المعذرة اذا أنا شغلت به وقت جلالتكم ، ولولا الضرورة الملحة التى توجب العجلة فيه لما فاتحت جلالتكم ، ولتواريت عن الانظار فى غير ضجة !

ــ تتوارى عن الانظار ؟.. انا لا افهمك أيها الفارس !

ــ مولاى . انى بالاختصار اطلب اعفائى من خدمة جلالتكم !

فانتفض الملك دهشة ، بينما ظل الضابط جامدا كالتمثال ، ثم سأله الملك :

ــ تطلب الاعفاء من خدمتى ... لاى اجل ؟

ــ لغير اجل على الاطلاق !

ــ أتترك الخدمة نهائيا ؟

ــ اجل يامولاى ، للاسف الشديد !

ــ هذا محال !

ــ بل ممكن يامولاى ، ولازم ايضا !. فقد كبرت سنى ، ولى فى خدمة القصر خمس وثلاثون سنة ، حتى كل كاهلى وشعرت انه قد آن الاوان ان اتخلى عن مكانى لمن هم اصغر منى سنا !

ــ انك اكثر شبابا واشد باسا منى !

ــ هذا هو الظاهر ، وكثيرا ماتخدع الظواهر !

ــ اراك تخفى حقيقة الدافع لك على الاستقالة . فهلا تروقك خدمتي ياسيدى ؟. اريد جوابا مستقيما لا مواربة فيه !

ــ اهو امر ؟

ــ اجل !. هذه ارادة ملكية ، فتكلم واصدقنى .

ــ ليكن لك ماتريد يامولاى .. لقد قضيت فى خدمة الملك والبيت الملكى اكثر من ثلث قرن كاصدق ماتكون الخدمة . وقد دخلت القصر فتى لا ادرى من امور الدنيا شيئا ، فاكتشف والدكم فى شخصي الضعيف ما أمله فى خيرا . بل ان الكردينال الكبير ريشيليو وجدنى كفؤا لعدائه ، وان سجل اسرتكم السرى يامولاى فيه الخبر اليقين عن ذلك العداء القديم ، وسترى فيه اينا كان له النصر . ولقد سلخت خمس سنوات قضيت كل يوم فيها فى مغامرة جديدة بين اقطاب السياسة وجبابرة السيف ، حتى ظفرت بتقدير جميع هؤلاء الاقطاب واذا قلت الاقطاب فانني اعنى الاقطاب حقا من طراز ريشيليو وباكنجهام وبوفور وريتز ولويس الثالث عشر .. بل ووالدتكم المعظمة التى لست فى حل من ذكر الخدمة الجليلة التى اديتها لها .. وانقضى عهد والدكم ، وبدأ عهد الوصاية فكنت فى خدمة مازاران حارسا للاسرة المالكة وله فى أحرج الظروف واحفلها بالاضطرابات . وكانى بالكردينال مازاران قد استقل حدود فرنسا ميدانا لخدمتي فارسلنى ايضا لاخدم حليفه كرومويل ، بعد ان منانى اذا وفقت فى مهمتى المجهولة أعذب الامال . ولكنى يامولاى وجدت الشرف فى جانب غير الجانب الذى ارسلنى الكردينال لاقف فيه وانافح دونه بهذا السيف الذى لم يخدم يوما الا قضية الشرف ، ولم يتدنس يوما بنقيصة يندى لها جبين الرجل الشريف ذى الاصل النبيل . فلما عدت وجدت عكس ماتوقعت . فطالما صدقت الخدمة فى الماضى ولم احظ بجزاء ، فلما خالفت الاوامر فى هذه المرة جزونى بترقيتى الى رتبة قائد حرس الفرسان . وهى يامولاى وظيفة تقدم صاحبها على ماريشالات فرنسا . وذلك لعمرى حق لا ريب فيه ، فمن قال قائد حرس الفرسان فقد قال عترة الجنود وملك الشجعان !

ــ اراك تخلط ايها الفارس ، فانت ملازم لا قائد !

ـ لا اخلط مطلقا ، فقد سلمنى الكردينال براءة الترقية بيده .

ـ ثم ماذا ؟

ـ ثم استردها ثانية فيما بعد كعهده فى الشح .. انه حينما استتب الامر له الغى الترقية ، لانه كان قد استغنى عن حماية هذا السيف !

ـ أهذا مايغضبك ؟. انى عادل احب العدل ، وسأنصفك .

ـ ان مولاى لم يدرك مرادى . فانى لم أطلب الساعة شيئا ، سوى الاذن لى فى الاستعفاء !

ـ الا تستطيع الانتظار قليلا ؟. الا يثير مستقبل حكمى اهتماما لديك ؟

ـ انه النسيان يامولاى ، وقاتل الله النسيان ! فاننا فى زمن انسى فيه السيد خدامه ، فغير عجيب ان ينسى الخدام سيدهم . واننا لفى زمن يامولاى نرى فيه الشبيبة وقد تضاءلت آمالها ، وتخاذلت همتها ، ورضيت وهى ربيع الحياة وزينة الدنيا وعزتها أن تكون مسربلة بالذل متطامنة للمسكنة !. اى مولاى !.. اننى منذ قليل فتحت باب ملك فرنسا كي يدخل منه ملك انجلترا ، ذلك الملك الذى اوشكت انا الضعيف ان انقذ اباه من بين يدى الجلاد !. فماذا حدث بعد ذلك ؟. حدث أن وزيرا خذل ملكه ومولاه وغل يده عن نصرة اخيه فى البأساء !.. حدث أن مليكى وسيدى الشاب القوى الشجاع الابى ، تخاذل وتضاءل أمام شيخ قمىء ضعيف شحيح لا يعرف الشجاعة ولا يعرف الكرم !.. وانى لارى فى عينيك يامولاى نظرة انكار لهذه الجسارة منى .. ولكن ثق باننى لو سمعت انسانا يقول معشار ما اقول الان ـ وهو الحقيقة بعينها ! ـ لدفنت سيفى فى حلقومه . ولكنك امرتنى بان اصرح بما فى نفسى ، فصرحت به بعد ان فاض الاناء وطفح الكيل !

ولم يقل الملك شيئا ، بل جفف العرق البارد الذى انتشر فوق جبينه وانساب فوق وجنتيه ، ثم قال :

ـ لقد لعنت ياسيدى النسيان !. ولم يعلق بذهنى غير هذه الكلمة من كل ماقلت . فلئن كان من شان غيرى أن ينسى ، فانى ذكور. وآية ذلك انى اذكر ليلة من ليالى باريس ، وقد ثار غوغاؤها واقتحموا القصر ، وكنت انا فى مهدى صبيا صغيرا لا حول لى ولا طول ، فوقف

فارس وراء ستائر سريرى وقد جرد سيفه فى يده ليحمينى باى ثمن من شعبى الثائر ، وكان هذا الفارس اخلص الناس لآل بيتى ، وقد عرض حياته لخطر الموت عشرين مرة من قبل بدافع الولاء لهم . وقد سألته بعد أن انجلت الغاشية تلك الليلة عن اسمه لاحفظه فى صدرى . الم يكن اسم ذلك الفارس ياسـيدى هو الشـيفالييه دارتانيان ؟

ـ لم تخنك الذاكرة يامولاى :

ـ هذا لكى تعلم انى ذكور ، فلئن وعيت وانا فى مهاد الطفولة ، فانى عند استواء العمر اشد وعيا واذكى فؤادا ..!

ـ ان نعمة الله عليك واسعة يامولاى ، وانك انما تتحدث بأنعم الله عليك !

ـ الا تكون لك فى قدوة حسنة ، فتصبر كما اصبر ؟

ـ فى وسع مولاى ان يصبر ، فأمامه فسحة العمر ، اما انا فلم يبق لى مجال للصبر بعد ان بلغت هذه السن . ولم يبق لى موضع للرجاء بعد ان خابت آمالى مرارا وتكرارا .!

ـ ليكن لك ماتريد ياسيدى !. وسآمر غدا بتسوية معاشـك . ولكنك فيما أعتقد قد خسرت سيدا لا يعوض !

ـ ليس عندى فى هذا ادنى شك يامولاى !

ـ اتراك تستبدل بى خيرا منى ، أم تستبدل الذى هو أدنى بالذى هو خير ؟

ـ انك فريد عصرك يامولاى ، ولن أكون من الخاسرين فاستبدل بك ولن يكون لى من بعدك سيد سوى نفسى !

ـ أتعنى ماتقول ؟

ـ بل أقسم عليه بين يدى جلالتكم .

ـ انى مسجل عليك هذا العهد . وانى كما علمت ذكور .

فانحنى دارتانيان باحترام ثم قال :

ـ لكنى ارجو ان تتفضل ذاكرة جلالتكم بشىء من النسيان فى هذا الوقت. . أرجو أن ينسى مولاى مادفعتنى حرارة الموقف الىاعلانه

الان . فما ينبغي لعظمة جلالتكم ان تشغلها امور الصغار والمستضعفين فى الارض من امثالنا !

ـ ان جلالتنا يا سيدى مثلها كمثل الشمس ، ترى كل شىء جل او هان ، وتشرق على كل شىء كبر او صغر ، وتمنح الحياة والنور والدفء والنماء للجميع على السواء ! . ووداعا ياشيفالييه دارتانيان، وامض على هديك حرا طليقا !

ثم غادر الملك الغرفة ، فتناول دارتانيان قبعته من فوق المائدة ، ثم انصرف .



قضى الملك الثانى ليلته مؤرق الجفن ، يرعى النجـوم من نافذة غرفته بفندق دى ميديتشى ، حتى اذا اوشك النهار ان يطلع اغفى قليلا ، ثم انتبه على صوت عربات الفلاحين تدرج فوق الطريق متجهة الى سوق المدينة ففرك عينيه الحمراوين من اثر السهاد ، ليجد بارى خادمه وخادم ابيه التعس من قبل وقد اعد جواديهما للرحلة الطويلة عبر الحدود الى هولندة :

وعلى قارعة الطريق فى قرية من القرى ، التقيا بفارس فى نحو الرابعـة والعشرين كان يلتفت وراءه بين الحين والحين ليلوح بيده لشيخ ذى قبعة حمراء كان واقفا امام بوابة بيت عتيق انيق ذى ابراج صغيرة .

وكان الملك يسير مطرقا ، وقد ارخى لجواده العنان ، فى حين كان بارى يركب منتصب القـــامة مفتوح العينين كى يمتص جسمه الواهن اكبر مقدار ممكن من حرارة الشمس الساطعة . فتسنى بهذا لنظراته ان تلتقى بنظرات الشيخ الواقف امام بوابة ذلك البيت ، فاذا بذلك الشيخ يرتجف ثم يتقدم نحوهما خطوتين ، ويجيل نظرة فى شارل ، ثم يرفع قبعته وينحنى باحترام عميق حتى كادت جبهته تمس الارض ، فالتفت شارل الى بارى متعجبا وقال :

ـ ترى هل عرفنى هذا الرجل ؟

ـ انى لفى مثل دهشتك يامولاى ، فيخيل الى اننى رايت هذا الوجه من قبل . ايسمح لى مولاى ان اتحدث اليه ؟ .. لقد تذكرته الآن ، انه « جريمو » خادم الكونت دى لافير ، او « آتوس » .. الرجل النبيل الذى طالما حدثت مولاى عنه ، ولابد ان مولاى يذكره ويحفظ له اجمل الذكرى .

ـ اليس هو الذى وقف بجانب ابى فى لحظاته الاخيرة ؟
ـ هو بعينه يامولاى .
ثم اتجه بارى الى جريمو وساله : « هل الكونت دى لافير يقطن هذه الناحية يا صاحبى ؟ » .
فاشار جريمو بيده الى المنزل ، فقال الملك شارل :
ـ وهل الكونت دى لافير فى بيته فى هذه الساعة ؟
ـ هناك فى الحديقة تحت اشجار الكستناء !
اسمع يا بارى . لا احب ان افلت هذه الفرصة كى اشكر ذلك الرجل النبيل الذى يدين له بيتنا بأعظم الايادى وأكرمها . فأمسك عنان جوادى وانتظرنى حتى اقضى هذا الحق !
وانطلق شارل غير منتظر ان يعلن جريمو سيده بقدومه ، وتوجه الى مكانه تحت اشجار الكستناء العالية كما يتوجه الند لزيارة نده . وكان الكونت يتمشى بين الشجر ، فلما سمع وقع اقدام شارل رفع راسه ، ولما رأى ذلك الغريب قادما نحوه أمسك قبعته بيده ووقف ينتظره . فخلع شارل قبعته وقال وكأنه يجيب عن سؤال صامت للكونت :
ـ سيدى الكونت ، لقد جئت اقضى لديك واجبا مقدسا . فانى اشعر منذ زمن طويل بدين عظيم لك فى عنقى . اننى شارل الثانى ابن شارل ستيوارت الذى جلس على عرش انجلترا ومات بيد جلادها !
فسرت فى جسد آتوس رعدة لتلك الذكرى ، ثم تنبه لوقوف ذلك الملك الشاب بين يديه عارى الراس ، وقد مد اليه يده ، فطفرت الدموع الى عينيه وانحنى باحترام عظيم ، بيد ان الملك الشاب تناول يده وشد عليها بحرارة ثم قال :
ـ انظر يا سيدى الكونت كم انا شقى ! ولولا فلتة من فلتات القدر لما اجتمعت بك . فقد شاء سوء طالعى الا يجتمع حولى من احبهم واجلهم من الناس ، وان احتفظت فى قلبى دائما بمعروفهم واياديهم

البيضاء . ولولا ان خادمي عرف خادمك ونحن نمر امام بابك لمررنا به غير محتفلين كما نمر بأبواب الغرباء !

ـ لقد ساءك الدهر كثيرا يا مولاى ، ولكن ان مع العسر يسرا ...

ـ بل أن ما يخبئه لى الغد لامر أشد وانكى !

فتطلع اليه آتوس مستفهما ، فانطلق الشاب يفرج عن نفسه بحكاية ما كان اخيرا بينه وبين الملك لويس الرابع عشر . وكيف ان هذا لم يستطع اقراضه مليونا من الذهب ليشترى به أحد العسكريين اللذين يتنازعان السلطان في انجلترا وكيف ان هذا الفشل قد قضى على آماله القضاء الاخير :

فلما وصل شارل من حديثه الى ذلك الوضع قال آتوس :

ـ لست ارى هذا الرأى ، فالامل فى استرداد عرشكم عظيم .

ـ وا اسفاه يا سيدى ! . هذا كلام صعب المنال جدا !

ـ هل يرى مولاى ان مليون جنيه يكفي لتحقيق اغراضه ؟

ـ يكفي وزيادة ! . ان لم يكن للنصر فلأن اموت كما ينبغى لملك !

ـ اذن أرجو من مولاى ان يعيرنى سمعه وانتباهه .. تعلمون انى رافقت جلالة والدكم حتى نهاية لحظـــــات حياته .. ولـكن الذى لا تعلمونه انني كنت واقفا فى طابق مسحور من منصة الاعدام تحت قدميه مباشرة ، وانه حين انحنى ليصلى وابتعد عنه الجلاد ليترك له الحرية كاملة فى صلاته ، خاطبنى همسا من فرجة بين اخشاب المنصة ، وكانت كلمتـه الاخيرة هى « تذكر » .. وحار النـاس فى من هو المقصود بهذا الامر ، وقد كنت انا ذلك المقصود فان الذى أفضى الى به فى هذا الموقف الرهيب انه دفن فى كهف معين بجبانة الملوك فى قلعة « نيوكاسل » مليون جنيه من الذهب لا يعلم بأمرها سواى ، وأوصاني الا استخرجه الا حين اتبين أن الوقت مناسب لخدمة قضية العرش !

فتهلل وجه الملك شارل ، وعانق الكونت دى لافير الذى قال :

ـ اليوم ياموﻻى أرى انه قد آن الاوان .. ولو لم تحضر جلالتكم بالصدفة السعيدة لزيارتى لسعيت انا اليكم حيث تكونون ، وأن فى حضوركم الى بمحض الصدفة لآية من الله العلى القدير على ان الوقت قد ازف حقا للاقدام على هذا الامر الخطير !

ـ ولكن الا تخشى يا سيدى ان تكون السنوات العشر الاخيرة من الحروب الاهليــة قد هدمت القــلعة فضاعت معالم الكنز أو نهبه الناهبون ؟

ـ ان المكان الذى فيه الكنز امين ، وانا واثق ان يدا لم تصل اليه . ثم ان الحصن القديم لم يزل قائما !

ـ ولـكن الجنرال « مونك » يحتله ويعسكر حـوله فى الوقت الحاضر . وهكذا ترى يا كونت ان الموضع الذى اتوقع منه معونة الله محتل بعدوى اللدود !

ـ لا اعتقد يا مولاى ان الجنرال مونك عثر على الكنز .

ـ اجل .. ولكن اذهب فاسلم نفسى الى « مونك » كى احصل على الكنز ؟ .. الم اقل لك يا سيدى ان القدر يعادينى ؟!

ـ ان ما لا يستطيعه مولاى قد استطيعه انا !

ـ اتذهب انت يا كونت ؟

ـ اذا حسن ذلك فى عينى مولاى !

ـ وتتخلى عن سعادتك ونعيمك المقيم هنا ؟

ـ اننى لا اشعر بأدنى سعادة ما بقى على واجب لم اقضه ! . وهذا الواجب أقدس الواجبات ، لانه وصية ملك فى ساعته الاخيرة .. ان ارعى ولده واسهر على تراثه وميراثه !

فعانق شارل آتوس مرة اخرى وقــد اغرورقت عيناه بالدموع ، وسرى الدم القانى فى وجنتيه الشاحبتين من جديد ، وصفق آتوس فحضر جريمو فأمره أن يعد خيوله لرحلة عاجلة فورا !

فقال شارل الثانى بلسان متلعثم :

ـ كيف اشكرك يا سيدى على هذه الاريحية ؟

ـ لقد كنت دائما على قدم الاستعداد لخدمة خالتكم ملكة فرنسا الوالدة ، ثم ملكة انجلترا الوالدة ، فلماذا اتقاعس الان والامر يخص جلالتكم بتكليف من رجل عاش عظيما ومات شهيدا كريما ؟

ـ ولكننى يا سيدى الكونت لا أستطيع أن اعرضــكم للمخاطر ، وانا رجل خاوى الوفاض ليس عندى ما أكافىء به المخلصين الامناء !

ـ انك تذهلنى يا مولاى ! . فانت لست خالى الوفاض بل تملك

مليون جنيه ذهبا .. ولو ان عندى نصف هذا المبلغ لجيشت جيشا كاملا لنصرتك . ولكن لا يزال عندى ولله الحمد بضعة اكياس من الذهب وجواهر موروثات الاسرة ، ارجو مولاى ان يتقبلها او يقتسمها على الاقل مع خادمه المخلص الامين !

— بل مع صديق كريم وولى حميم ! . وعلى شريطة ان يقتسم هذا الصديق مع صديقه ما يجود عليه به غيب غده المأمول !

ففتح آتوس خزانة سرية ، واخرج منها الذهب والجواهر ، ووضع الجميع فى حقيبة ، ثم ترك رسالة للفيكونت دى براجيلون ، وأوصى خادمه « بليزوا » ان يقول لكل من يسأل عنه ، انه توجه الى باريس .

ثم ركب آتوس يتبعه جريمو جواديهما وانطلقا فى صحبة الملك شارل وخادمه بارى !

قائد وعشرة فرسان

لم تكد تمضى على رحيلهم ساعتان ، حتى وصل فارس ما كادت تراه عينا « بليزوا » حتى صاح هاتفا :

ـ السيد دارتانيان ؟ . مرحبا بك ! افتحوا الابواب !

ولما دخل السيد دارتانيان ، وترجل عن جواده ، سال عن آتوس ، فقال له بليزوا :

ـ ما اشد اسف سيدي الكونت اذا علم بحضورك وهو غائب ، فهو مشتاق اليك جدا . ولكنه سافر فجأة قبل حضورك بساعتين !

ـ سانتظره اذن حتى يحضر . وعليك ان تؤنسنى !

ـ احسب هذا مستحيلا يا سيدى ، لان الكونت سوف لا يعود فى اجل قريب كما يلوح لى !

ـ والى اين ذهب ؟

ـ ذهب فى رحلة .. وقال لى ان اخبر كل من يسال عنه انه فى باريس .

ـ وهل سافر وحده ؟

ـ كلا يا سيدى . فمعه سيد شاب لا أعرفه ، وشيخ ، وجريمو !

ـ سأدركهم اذن ، فلن يكونوا أسرع منى ركوبا !

ـ عفوك يا سيدى ! فانى لا اظن انهم رحلوا فعلا الى باريس . ولهذا أرجو من سيدى الا يتعب نفسه بالاسراع اليها ، فقد بدا الى من لهجة سيدى ان باريس ان هى الا قناع لتمويه الغاية !

فاطرق دارتانيان ، وايقن انه لن يصل الى معرفة شىء اكثر من هذا ، فقنع من الغنيمة بالاياب ، وشكر « بليزوا » وانطلق الى ميلان، حيث مقر نياقة الاسقف اراميس .

ووصل الى هذه البلدة بعد اربعة أيام من السير الجاد ، فوجد ديرا مزدهرا جدا وحديقة غناء ، وسمع صوت صبية يتمرنون على الاناشيد ويقودهم معلم ذو صوت أجش ، عرف فيه صوت بازان تابع اراميس الامين .. فاستقبله الرجل بترحاب عظيم ، ثم أبدى له اسفه لغياب سيده فى اسقفيته الجديدة ، بمدينة فان ، التى عينه راعيا لها وزير المالية السيد فوكيه ساعد مازاران الايمن ، الذى بدأ نجمه يعلو فى افق الدولة الفرنسية حتى كاد يكسف جميع النجوم الاخرى !

فقال دارتانيان لبازان بعد هذه الخيبة الجديدة :

ـ اسعفنى اذن بدجاجة سمينة وزجاجة من النبيذ !

ـ ولكننا فى يوم من أيام الصوم يا سيدى الفارس ؟

ـ عندى تصريح من الحبر الاعظم !

ولم يلبث ان جاءه الطعام فأقبل عليه اقبال الضوارى ، ثم قاده بازان الى حجرة فسيحة حسنة الفرش فنام فيها نوما عميقا حتى الصباح ، ثم قرر عندما استيقظ أن يولى وجهه شطر ضيعة « بيير فون » حيث الصاحب الثالث « بورتوس » . وهو يقول فى نفسه :

ـ ان بورتوس اطيب الناس قلبا واقواهم ذراعا ، ولا باس عليه اذا كان مجردا من الذكاء ، فعندى منه ما يكفى اثنين !

وبعد مسيرة ثلاثة ايام وصل الى أسوار القصر العالية . فاذا على الطريق صندوق ضخم يجرى على عجل ، يدفعه من الخلف حاجبان ، ويجره حاجبان آخران . وفى هذا الصندوق كرة ضخمة خضراء مزركشة بالذهب . فلما اقترب دارتانيان تبين تلك الكرة ، فاذا هى « موسكيتن » وقد غدا أبيض الشعر أحمر الوجه . فلما رآه الرجل راح يصيح صيحات الفرح ويأسف لانه اصيب بالكساح فلا يستطيع النهوض لاستقباله !

ـ كم سيفرح سيدى بحضورك واهتمامك بزيارته .

ـ وانا ايضا مشتاق اليه جدا .. ومتلهف على تقبيله !

ـ طبعا طبعا . وسأكتب اليه بكل ذلك .

ـ تكتب اليه ؟ أليس هنا اذن ؟

ـ كلا يا سيدى .. انه غائب عن القصر !

ـ غائب ؟ واين ذهب ؟ الى مكان قريب او بعيد ؟

ـ لا ادرى !

ـ ان بورتوس رجل استقرار لا يحب السفر فاين ذهب ؟

ـ هو فعلا يحب الاستقرار ويكره السفر والتنقلات . والواقع انه معذور ، فماذا كان يفعل أمام الحاح صديق مثل السيد ديربلاى ؟

ـ اراميس ؟

ـ اجل هو يا سيدى ، فقد كتب الى سيدى خطابا ما كاد يقرؤه حتى ركب جواده ورحل على الفور !

واستسلم دارتانيان لهذه الخيبة الثالث ، وقضى ليلته فى قصر صديقه . فلما أصبح الصباح كان اليأس قد خيم عليه ، وشعر بوحدة شديدة ، فركب جواده عائدا أدراجه الى باريس ، فوصل اليها بعد يومين ، وكان قد غاب عنها عشرة أيام فى سفر متصل لا طائل تحته !



وصل دارتانيان الى شارع « اللومبار » ، وترجل عن جواده فى ذلك الشارع المزدحم من شوارع باريس ، أمام محل كبير للبقالة ، يقدم وجبات الطعام والنبيذ الجيد فى قاعة فسيحة به ... وكان صاحب المحل رجلا متين البنية ، عليه مخايل الصحة والعافية ، وقد لبس « مريلة » بيضاء ، فما أن رأى دارتانيان حتى ظهرت عليه امارات السرور العظيم . فقد كان هذا الرجل بلانشيه .

واتم الرجل اعماله العاجلة بسرعة ، ثم انتحى بدارتانيان جانبا ، وراحا يشربان معا على الذكرى القديمة ، ويأكلان عشاء طيبا احتفل بلانشيه باعداده لسيده السابق ...

وفى اثناء الطعام أفضى دارتانيان الى بلانشيه باعتزاله خدمة الملك ، ثم ساله بعد ذلك :

ـ كيف حال اموالنا يا بلانشيه ؟ ..

ـ على خير ما يرام . فان العشرين الف فرنك ذهبا التى اعطيتنى

اياها لتشغيلها فى التجارة ، من المال الذى تقاضيته مكافأة على خدماتك اثناء ثورة باريس ، قد ربحت بمعدل ٩٪ ، وانى احتفظ لنفسى بـ ٢٪ نظير اتعابى واعطيك ٧٪ ..

— هــذه قسمة عادلة .. ولكن هل انت محتــاج الى هذا المبلغ الآن ؟ ..

— ابدا يا سيدى ! . فكل انسـان يعرض على الآن توظيف ماله فى تجارتى ، بعد ان راوا ازدهارها ونجاحها .. ولكن لماذا تريد كل هذا المال يا سيدى فى الوقت الحاضر ؟

— هذا امر يطول شرحه يابلانشيه ..

— اهو مشروع مالى ؟

— اجـل !

— ناجح ؟ مثمر .

— مثمر جدا . ربحه اربعمائة فى المائة يا بلانشيه !

فصاح بلانشيه فى دهشة شديدة :

— أهذا ممكن ! .

— بل ان الربح سيكون اكثر من هذا .. ولكنى اقول الاقل على سبيل الاحتياط .

— يا للشيطان ! . وهل يمكن استغلال اموال كثيرة فى هذا المشروع يا سيدى ؟ ..

— يمكن أن نشترك فيه معا ، كل منا بمبلغ عشرين الف فرنك ، لمدة شهر أو شهر ونصف على الاكثر !

— اذن لا شك ان المخاطرة جسيمة ، وان قتالا حارا سينشب فى سبيل تحقيق غاية هذا المشروع ؟!

— أجل يا شريكى ، ولكنى انا الذى ساتحمل عبء القتال وحدى ! وكذلك عبء السفر عبر البحار !

— السفر عبر البحار ؟ . الى اين ؟ .

— الى انجلترا يا صاحبى ... والمشروع سرى جدا ، لانه يتعلق باعادة اسرة ستيوارت الى عرش انجلترا ، وتنصيب شارل الثانى

مكان ابيه المقتول . وانى معتزم ان اجند كتيبة صغيرة من الجنود السابقين الذين احترفوا قطع الطريق ، ونختطف احد قائدى انجلترا المتنازعين على السلطان ، حتى يخلو الجو لصاحبنا ، ونحضره الى فرنسا فنسلمه للملك شارل أسيرا ، فيسقط فى يد جيشه ويفتح ابواب انجلترا على مصراعيها للملك الطريد !

ـ مشروع رائع ... ولكن كيف التنفيذ ؟

ـ هل تشك فى مقدرتى على التنفيذ يا بلانشيه ؟

ـ معاذ الله ! . فقد رايتك تصنع المعجزات وتاتى بالخوارق .. وباه ! كم يأخذنى الزهو حين أتصور ان دكانتى هذه يتقرر فيهـــا مصير امة ومقدرات عرش .. وان شركة « بلانشيه وشركائه » هى التى ستغير وجه التاريخ على هذا النحو الفريد !

ـ لقد اتفقنا اذن ؟

ـ وهل ترددت يوما يا سيدى فى اطاعة امرك والائتمام بك ؟

ـ اذن هات ورقة وقلما لنسجل عقد الاتفاق بيننا على بركة الله .. ولن يفوتنى أن أترك نصف المال هنـــــا معك ، لانى لن أدفع مؤخر الاتعاب لرجالى الا عند تمام المهمة وتسليم « البضاعة » فى باريس .. فاذا قضى على ان اموت هناك ، كان نصيبك ـ وهو النصف الموجود تحت يدك هنا ـ مضمونا لك يا صاحبى !

ـ سيدى .. ان خسارة مبلغك لن تدع مثلى يفكر فى اى خسارة مالية ، مهما تكن فادحة .. وانى واثق انه سيكتب لك السلامة ، ولشركة بلانشيه النجاح والتوفيق والربح الجزيل !

سلخ دارتانيان ليلته تلك متفكرا فى طريقة تنفيذ مشروع «الشركة» التى وقع عليه عبء اخراجه الى حيز الوجود . وراح يتدبر عــدد الرجال اللازمين لتنفيذ المشروع ، فوجد بعد اعمال الفكر ان الخير فى العدد القليل مع النشاط والخفة فى الحركة ، لسهولة النقلة بين بلد اجنبى بغير اثارة الشبهات !

واستقر رايه على ان يختـــار عشرة رجال يقودهم بنفسه ، كى يحتفظ بسر القيادة واهداف العمليات فى صـــدره ، فلا يتعرض للخيانة والافساد .. ثم انه من السهل ادعاء ان العشر خدام وعمال له كتاجر !

ولما طلع النهار ، اتصل دارتانيان بالعشرة الذين وقع عليهم اختياره، واخبرهم انه معتزم القيـــــام برحلة رسمية ، كلفته بها الدولة ، لتتحسن العلاقات التجارية بين فرنسا وانجلترا ، والترويج للمتاجر الفرنسية في أسواق تلك الجزيرة . وانه يحمل عينات وعروضا ، واتفق معهم على معاونته ، على ان يدفع لهم بعض الاجر مقدما ، وباقيه في باريس عند العودة من الرحلة في خلال شهر .

وضرب لهم موعدا للمقابلة في خان بمدينة « كاليه » في شمال فرنسا ، بعد ستة أيام من ذلك التاريخ . وكان قد احسن اختيارهم ، فكان من المضمون ان يجدهم في الزمان والمكان المعينين .

وفي اليوم المعين وصل دارتانيان الى ذلك الخان ، ونادى بالنداء المتفق عليه ، فقام الرجال العشرة من بين العملاء وتبعوا قائدهم ، فاتجه بهم الى مكان منعزل من الشاطىء ، وهناك وقف بينهم ، وأجال فيهم نظراته النافذة ثم قال لهم :

ـ تعرفون جميعا من انا ، فقد خدمتم تحت امرتي ، وعملتم معي رفقاء في السلاح في الزمن الخالي .. فاذا كنت قد اخترتكم اليوم للعمل معي في هذه المهمة ، فانما ذلك ثقة مني فيكم ، ورغبة مني في اشراككم في عمل مجيد لا يليق بالاضطلاع به الا امثالكم من الابطال الميامين ! فاعلموا انكم اذ تعملون تحت لوائي انما تعملون للملك .. ولكن اياكم ان تظهروا هذه الحقيقة لاحد ، بل يجب ان تزعموا دائما انكم وسطاء للتجارة ، تعملون لحساب تجار فرنسا ، واذا بدا من احدكم ما ينم عن الحقيقة فاني محطم راسه .. فان اسرار السياسة العليا كالسم القاتل ، فطالما ظل هذا السم حبيسا في صندوقه ، لم يحدث منه ضرر . أما اذا خرج منه فلا امن ولا سلامة ! .. وسيتعين علينا في سبيل تحقيق غايتنا أن نتنكر ونتخفى . وان نتجسس أحيانا، والامر بعد ذلك ليس فيه خطر كبير ، لان وراء ظهورنا سند عظيم .. ولهذا فاني مطمئن على نجاح الحركة ، لولا ان هناك شيئا واحدا ارجو ان تريحوني من جهته . فاني لا اضمن البحارة والصيادين الذين سيقودون سفينتنا ، فقد يكونون من الغباء والبلاهة بحيث يفسدون امرنا او يثقلون علينا ، فلو كان منكم من يعرف الملاحة فنا وعملا ...

فصاح احدهم : « لقد كنت اسيرا بين القراصنة فى تونس ثلاث سنوات ، ولذلك اعرف الملاحة واحذقها كاى اميرال ! » .

وصاح آخر : « وانا كان عمى رئيس ميناء « لاروشيل » . ونشأت في البحر طفلا ويافعا ، واصلح مساعدا فى اعمال الربابنة ، كما احذق طى الشراع وبسطه وامساك الدفة » .

وصاح آخران بانهما قضيا مدة سجن سابقة في سفينة من سفن الدولة ، فهما يعرفان اعمال النوتية . وكذلك وجد دارتانيان نفسه رئيسا لاربعة بحارة وعشرة جنـــود بريين .. لان الاربعة البحريين مشتركون في جندية البر والبحر .

ولم تبق أمام دارتانيان بعد ذلك الا مهمة التنظيم .. وكان امره الى رجاله ان يذهبوا متفرقين الى « لاهاى » فى هولندة ، وضرب لهم موعدا للالتقاء بهم هناك بعد خمسة عشر يوما !

وفى الموعد المحدد اجتمع بهم فى لاهاى كما اجتمع بهم من قبل فى كاليه .. ووجدهم قد تزيوا جميعا فى زى البحارة والصيادين ، مما دله على حسن فهمهم وفطنتهم !

وعلم دارتانيان وهو فى لاهاى أن الملك شارل الثانى ملك انجلترا قد وصل اليها ، ليكون الى جوار حليفه غليوم الثانى عاهل هولندة . كما علم أن رفض لويس الرابع عشر ان يعين شارل الثانى ، قد هبطت باسهم هذا عند حليفه الهولندى ، ولذلك لاذ بدار صــغيرة فى ضاحية من ضواحى لاهاى ، تطل على شاطىء بحر الشمال ، حيث يمضى وقته فى التحديق فى البحر الذى يفصله عن وطنه فى ألم وأمل يغالب ظلمات القنوط .

وشد دارتانيان الرحال الى تلك الضاحية ، ورأى الملك على هذه الحال برهة طويلة ... فابتعد ولم يكشف له عن نفسه . وفى هذه الليلة عينها اشترى سفينة صيد بألف فرنك ذهبا ، وركبها مع رجاله، وانطلقوا مع الموج الى غايتهم البعيدة !

الكنز المفقود

كان الامر في انجلترا ، يتنازعه قائدان : احدهما الجنرال مونك الذى اعلن دفاعه عن سلطان البرلمان وحريته ، والآخر منافسه الجنرال لامبرت ، اركان حرب كروموبل ، الذى فرض رأيه قانونا نافذا يصدر عنه ذلك البرلمان ، حتى انه حاصر دار النيابة لاجبار النواب على المناداة به .

وهكذا كان مونك ممثل الجمهوريين ، ولامبرت ممثل الديكتاتورية العسكرية ، وسعى كل منهما الى أن يكون له جيش خاص ، فكان للأخير جيش فى انجلترا ، وكان للأول جيش فى اسكتلندا قوامه احد عشر الفا من الجنود المدربين الذين طالما قادهم الى النصر !

وفي الوقت الذى وقعت فيه حوادث هذه القصة كان الجيشان فى منطقة نيوكاسل ، وكان لامبرت اسبق من صاحبه فى الوصول الى تلك البقعة فاحتل المدينة الجديدة ، وترك القلعة القديمة على نهر التويد يحتلها جيش مونك عدوه اللدود .

وكانت المشكلة الكبرى لكل من الجيشين هى انعدام المؤونة او قلتها الى حد كبير ، على أن الجيشين كان بينهما فرق جسيم ، فجيش مونك من اهل اسكتلنده الذين تعودوا التقشف فى حياتهم فلا يهتمون على الاطلاق اغاب اللحم أم حضر ، ما داموا يستطيعون ملء بطونهم من الشعير ، اما جيش لامبرت فكان على العكس من ذلك لا يطيق صبرا على تلك الحال !

وفى تلك الليلة كان الجنرال مونك جائعا ، فهو لم يتعود فطير الشعير ، فلم يستطع أكله . وكان اعضاء هيئة اركان حربه أشد منه جوعا ، فكانوا يتلفتون ذات اليمين وذات اليسار لعلهم يجدون ما يقتاتون به !

وقد أرسل مونك طلائعه للاستكشاف ، ولكنها عادت خالية

الوفاض ، اذ لم تستطع العثور حتى على كسرة خبز من دقيق القمح لعشاء القائد ، فلم يسعه الا ان صرف اركان حربه ، وعالج النوم وهو يفكر فيما يحمله اليه الغد .. اذ لا يستبعد ان يشن لامبرت الهجوم فى الصباح !

وكانت الساعة حوالى منتصف العاشرة مساء ، حين نبهه صوت ضجة شديدة صادرة من مجموعة من الجنود يطلقون صيحات الفرح ويدقون اعمدة خيمته بأرجلهم ليوقظوه لانهم ظنوه نائما ، فصاح بهم :

ـ ماذا جرى يا ابنائى ؟

ـ انك ستتعشى هذه الليلة يا جنرال !

ـ لقد تعشيت يا اولادى ، وكنت اهضم العشاء مسترخيا فى هدوء ، ولكن لا باس ادخلوا وقولوا ماذا جاء بكم ؟

ـ خبر سار ياجنرال .. ! لقد اسرنا قاربا لجماعة من الصيادين كانوا يحملون سمكا كثيرا الى معسكر لامبرت فى نيوكاسل !

ـ ومن هم هؤلاء الصيادون ؟

ـ بحارة كانوا يزاولون الصيد على شواطىء فرنسا وهولندا ، حملتهم الانواء الى شاطئنا !

ـ هل فيهم من يتكلم لغتنا ؟

ـ لقد قال لنا رئيسهم بضع كلمات بالانجليزية .

ولم يسعه جريا على عادة الحذر الا ان طلب مثولهم امامه ، فجاءه رجاله برئيس أولئك الصيادين ، وكان رجلا فى نحو الخامسة والخمسين من عمره ، قوى البنية ، متوسط القامة ، فوق راسه طاقية مما يلبسه رجال البحر ، وفى حزامه خنجر رفيع ، وكان يمشى مشية التردد المعهودة فى رجال البحر .

وحدق فيه مونك بنظره الثاقب مدة طويلة ، فكان الصياد يبتسم له ابتسامة الريفى الساذج ، ثم ساله الجنرال :

ـ هل تعرف الانجليزية ؟

ـ معرفة ضعيفة جدا يا مولاى ، فنحن رجال البحرية نعرف طرفا من كل لغة . وانى صياد ماهر ، فقد وقفت هذه المرة الى انواع فاخرة وكميات وفيرة ، لاشك انها ستروق مولاى !

ـ ساشترى منك هذا الصيد ، ولكن قل لى بصراحة اين كان مقصدك بهذا السمك حين قبض رجالى عليك ؟

ـ لا اكتمك يا مولاىّ اننى كنت قاصدا به الى نيوكاسل !

ـ ولماذا كنت تريد ان تخص به لامبرت دونى ؟

ـ ذلك ان أهل المدن أكثر سخاء ، اما انتم يا أهل اسكتلنده المتقشفين ، فان طعامكم قليل ، والمال الذى تبذلونه اقل منه !

ـ ولماذا جئت للصيد على شواطئنا ؟

ـ ان الانسان يدفع سفينته الى اليم ، ولكن الله هو الذى يدفع بها حيث يشاء !

ـ واين رفاقك ؟

ـ انهم فى السفينة ، فهم نوتية اجلاف جهلاء !

ـ وكم تريد ثمنا لهذا السمك ؟

ـ لن أحدد له ثمنا ، ولا اريد الا غنيمة الاياب !

ـ خذها نصيحة خالصة .. لا تعبر المستنقعات الى الناحية الاخرى ، فانها مملوءة بمكامن جنودى ، وسيعرضك هذا لخطر محقق ، ولا سيما أنك ستكون عامر الجيب بالمال الذى ساعطيك اياه ثمنا للسمك !

ثم نادى ياوره وامره ان يحرس الصياد الى سفينته . وفى هذه اللحظة دخل حارس الباب وقال للقائد :

ـ لقد تقدم يا مولاى الى النقط الامامية نبيل فرنسى وطلب مقابلة مولاى .

وكان هذا الحديث طبعا باللغة الانجليزية ، ولكن الصياد الفرنسى اهتم به جدا ، حتى لقد صدرت عنه حركة دهشة لم يلتفت اليها الجنرال الذى سأل الحارس :

ـ من يكون هذا السيد ؟

ـ فقال الحارس : « لقد ذكر لى اسمه يامولاى ، ولكن هذه الاسماء الفرنسية يصعب نطقها . وقد علمت من الحراس ان هذا السيد حضر بالامس . وان مولاى رفض مقابلته لانشغاله بمجلس الضباط !

ـ هذا صحيح .. ادعه الى هنا الآن .

ـ وهل يلزم اتخاذ الاحتياطات ، مثل تغطية عينيه الخ .

ـ وما جدوى هذا ؟ فانه لن يرى الا ما اريد ان يراه ، وهو ان معى جيشا ضخما من الابطال المتحمسين للقتال . وخذ معك هذا الصياد لترسله مخفورا الى السفينة .

وخرج الصياد مع الياور ، فوجد زملاءه منتظرين فى الخارج ، فاخذهم وانصرف ومعهم حارس . وفى اثناء الطريق ، مر بجوارهم الحارس الذى كان يقود الشريف الفرنسى الى خيمة الجنرال مونك . وكان هذا السيد النبيل ممتطيا جوادا ، وقد التف بمعطف فضفاض ، لم يسمح لكبير الصيادين ان يكتشف ملامحه مع شدة تلهفه الى ذلك . أما السيد الفرنسى نفسه فلم يلاحظ مرور جماعة الصيادين على الاطلاق !

واخترق النبيل الفرنسى المعسكر غير ناظر حوله يمينا ولا شمالا، لا يهتم بالتطلع أو الفضول ، الى ان بلغ خيمة القائد العام . فلما دخل عليه ثبت فيه الجنرال نظراته الثاقبة على عادته حين يقابل الغرباء ، لكنه واجه هذه النظرات بثبات لا يشوبه الضيق او الارتباك . وطال الصمت لحظة ، أشار بعدها الجنرال برأسه اشارة تدل على انتظاره لما يقول ضيفه . فقال هذا فى لغة انجليزية سليمة جدا .

ـ لقد طلبت ياسيدى اللورد مقابلة فخامتكم لامر ذى بال .

فأجابه « مونك » فى فرنسية سليمة :

ـ انك تجيد لغتنا يا سيدى مع انك من ابناء القارة ، حتى يخيل الى ان فرنسيتك ليست فى مستوى انجليزيتك النقية !

ـ ليس هذا عجيبا يالورد ، لاننى قضيت جانبا من شبابى فى هذه البلاد ، ثم عدت اليها مرتين بعد ذلك .

ـ وفى اى بقعة من بلادنا كنت تقيم ؟

ـ اما فى صدر شبابى فكنت اسكن لندن . ثم حضرت الى اسكتلندة فى سنة ١٦٣٥ للنزهة ، وعدت اخيرا فى سنة ١٦٤٨ فكانت اقامتى بعض الوقت فى نيوكاسل ، ولا سيما فى القلعة القديمة التى تحولت الى دير تشغل جيوشكم جانبا من حدائقه الآن .

ـ والآن يا سيدى ماذا استطيع لخدمتك ؟ ولماذا طلبت مقابلتي ؟

ـ هل نحن اولا على انفراد ؟

ـ بكل تأكيد ، فيما عدا الحارس الذى يحرس الباب .

ـ في هذه الحالة يا لورد ، لا اجد ما يمنعني من مصارحتك بما عندي ، فاني اعرفك رجلا شريفا . وسيدلك ما ساقضي اليك به الان على مبلغ ثقتي باخلاقك وامانتك !

فتطلع الجنرال مونك الى محدثه مستغربا هذه اللهجة ، ثم قال :

ـ اشكرك كثيرا يا سيدى ، ولكن هلا قلت لي اولا من تكون ؟

ـ انني ادعى الكونت دى لافير .

ـ الكونت دى لافير ؟.. يؤسفني ياسيدي الا اذكر هذا الاسم . فهل تشغل وظيفة معينة في البلاط الفرنسي ؟

ـ لا يا سيدى .. فما انا الا نبيل من غمار النبلاء .

ـ وهل تحمل اوسمة ؟

ـ منحني الملك شارل الاول ملك انجلترا وايرلنده واسكتلنده وسام ربطة الساق من طبقة فارس . ومنحتني ملكة فرنسا الوشاح الاكبر من نيشان الروح القدس . ولا احمل سوى هذين الوسامين يا سيدى .

ـ انهما اعلى الاوسمة فى بريطانيا وفرنسا على السواء ، ولا يحمل اعلى منهما حتى الامراء المتوجون . ولكن لاى مناسبة منحت هذين الوسامين ؟

ـ لمناسبة خدمات اديتها لجلالتها . ولكن ارجو اولا من سيدى اللورد ان يعلم انني لم احضر لامر يتعلق بجيشه ولا بالمعركة التى قد تنشب غدا بينه وبين الجنرال لامبرت . بل اتيت يا سيدى اللورد لاحدثك فى امر يخصني وحدى !

ـ تكلم يا سيدى بما تريد .

ـ ذكرت لفخامتكم انني اقمت زمنا فى نيوكاسل ، وكان ذلك فى عهد الملك شارل الاول ، وحين سلم الى الجنرال كرومويل وكنت فى ذلك الوقت املك مبلغا جسيما من الذهب ، ففى عشية المعركة خشيت مما قد يأتى به الغد ، فخبأته فى كهف الموتى بالدير ، تحت

ذلك البرج الذى ترى من هنـــــا قمته العالية وقد فضضها ضوء القمر . وقد جئت ارجو من فخامتكم ان تسمحوا لى باستخراج كنزى المدفون ، قبل ان تحول المعارك التى قد تنشب غـدا دون ذلك ، فقد يصاب البرج أثناء المعركة بما يهدمه فيضيع على مالى ، أو ينكشف أمره فيتناهبه الجنود .

ـ ولكن هل تظن يا سـيدى ان كنزك ما يزال موجودا حيث وضعته ؟

ـ انا واثق من هذا كل الثقة !

ـ وهل قيمة هذا الكنز تستحق كل هذا العناء والتعرض للمخاطر؟

ـ ان قيمته مليون ذهبا !

ـ مليون ! . أتريد استخراج كنزك هذه الليلة ؟

ـ ارجو هذا يا سيدى اللورد !

ـ ساعمل على اجابة هـذا الطلب ، وانى مقـدر ثقتـك التى جعلتك تفشى لى هذا السر دون خوف من تغلب المطامع فى نفسى . وانى لهذا ادعوك الى تناول عشائى البسيط المصنوع من السمك ، ومن محاسن المصادفات ان هذا السمك صاده صيادون من بنى جنسك !

ـ ان دعوتك يا لورد تقدير كريم احرص على تحصيله !

وحضر العشاء البسيط فأكلا معا ، والكونت يروى على المائدة طرفا من أخبار المناوشات التى حـدثت فى فرنسا بين مازاران والامراء الاحرار . وقد جعلت هذه الاحاديث الطلية الجنرال يوقن أن محدثه شخص ممتاز حقا ، فلما انتهى العشاء قال الجنرال :

ـ والان سأذهب معك لاضمن لك سلامة حصولك على كنزك !

ثم تمنطق الجنرال بسيف قصير ، وغـدارة محشـوة ، وكان يلبس تحت ثيابه درعا رقيقة من الصلب ، ثم نادى ياوره ، وأمره بانتظار عودته ، ثم مضى مع « آتوس » يتسللان فى الظلام . وبعد مسيرة عشرة دقائق فى المستنقعات الجافة ، بين المواقع الامامية ، بدأوا يسيرون فى الطريق المفضى الى الدير ، وفى أثناء ذلك لاحظ الجنرال شبحا يتبعهما ، فظنـه ياوره ويجى ، فنـاداه ، بيد أن الشبح لم يقبل عند سماع النداء ، بل اختفى مبتعدا نحو الموضع الذى فيه سفينة الصيادين ، ففهم الجنرال ان ذلك الشخص لم

يكن يتبعهما بل ربما كان يقضي حاجة فى الخلاء ولكنه مع هذا قال :
ـ سنحتاج الى من ينير لنا الطريق داخل الكهف .
ـ ان أول جندى يقابلنا يا جنرال يستطيع ان يؤدي لنا هذا العمل !
ـ انى افضل ان يقوم بذلك أحد هؤلاء الصيادين من مواطنيك . فانهم سيرحلون غدا ، وبهذا يبقى سر كنزك مصونا عن العساكر فلا تتعرض بسببه للاخطار . وربما خطر للعساكر اذا عرفوا هذا السر ان كل بلاطة فى نيوكاسل تحتها مليون ذهبا ، فلا يبقى فى البلد حجر على حجر !
ـ افعل ما يحلو لك يا جنرال !
فاقترب من اقرب نقطة حراسة ، وقال الجنرال لآتوس :
ـ ايقظه وكلمه انت ، فاني لو كلمته سيعرف صوتى !
ودلهما الحارس على موضع الصيادين ، فطرق آتوس باب الخيمة وقال بالفرنسية :
ـ استيقظوا ايها النيام !
فخرج اليه كبيرهم فعرف الجنرال وابدى استعداده لاى خدمة ، فسرت فى جسد آتوس الذى كان واقفا فى الظلام رعدة عند سماع صوت هذا الصياد المزعوم ، وسرعان ما أضاء الصياد مصباحا محكما من مصابيح الفن ومشى امام الرجلين ، وعند باب الدير وجدوا أربعة جنود فى موقف الحراسة ، فسرا لذلك لانهم سينفعون فى حمل صندوق الكنز . وقال مونك كلمة السر فدخلوا الى القبو الذى كانت تملؤه التوابيت والفيران ، وقد تناول مونك المصباح من الصياد وصرفه ، واشار آتوس الى بلاطة معينة فيها حلقة صغيرة وقال « هنا ! » .
واخذا يتعاونان على رفع الحجر بعد ان حطم آتوس الجص الذى كان يثبته ببقية بلاط الارض ، ولكن الحجر ظل ملتصقا بالارض ، فقال آتوس :

ــ لو ان معى خنجرا لحفرت ما حول الحجر !

ــ اذن اعطيك خنجرى انا ، وان كنت اخشى ان يكون ضعيف الحد .

ــ اذن نطلب من ذلك الصياد الواقع فى الخارج ان يلقى الينا خنجره الذى رايناه فى حزامه .

فنادى مونك الصياد وأمره ان يقذف بخنجره الى الداخل ففعل وتناول آتوس الخنجر وانكب على العمل ، مستدبرا مونك ، تاركا حياته بين يديه بلا دفاع . فلو قتله واستولى على الكنز لما حال بينه وبين ذلك حائل !

وسرعان ما تحرك الحجر ، وظهر الصندوقان فى مكمنهما فبدا الارتياح على وجه آتوس ، وقال له مونك :

ــ اراك مسرورا يا سيدى بوصولك الى غايتك ؟

ــ لاشك فى ذلك ياسيدى !.. ولكنى كنت واثقا بان الله الذى ينصر القضية المقدسة لن يسمح بضياع المال الذى سينصر تلك القضية !

ــ انك لغريب يا سيدى وغامض ، تكتنف الاسرار اقوالك واعمالك على السـواء .. فعن اى قضية مقدسة تتحدث ، فنحن هنا فى انجلترا نتحدث عن اكثر من قضية واحدة ، يزعم انصار كل منهـا انها قضية مقدسة .. فصارحنى ياسيدى بهذه القضية ، حتى ارى اذا كانت وجهة نظرنا فيها متفقة ؟

فرمق آتوس مونك بنظرة ثاقبة ، ثم بدأ يشرح له تلك القضية :

ــ انك يا سيدى الجنرال نبيل انجليزى ، مخلص وشريف وامين ، ومحدثك نبيل فرنسى نقى القلب والسريرة ، فاعلم ان هذا الذهب ليس ملك يمينى ، بل هو ميراث شارل الاول لولده شارل الثانى الملك الطريد !

ثم حكى له كيف حاول هو انقاذ شارل الاول ، بمساعدة اصحابه الثلاثة ، وكيف شهد اعدامه ، واقفا تحت قدمى شارل ، وكيف زعم شارل انه يصلى راكعا ، فيهمس له بسر الكنز . ويوصيه بالمحافظة عليه واستخراجه حين يحين الوقت لخدمة قضية الملكية .. ثم قال :

ــ وها انذا بين يديك يامونك وانت مطلق السلطان .. انا اعزل

وانت مسلح ، وهذه حفرة فاغرة الفم .. وهذا صدرى اعرضه لك راضيا . ولكنك يا سيدى رجل شريف ! . واذا كنت مؤمنا بقضيتك، ودفعت بك الحماسة الى مصادرة هذا المال ، فانى اعذرك ، فتلك المصادرة هى الضربة القاضية على عدوك ، لان هذا المال هو السهم الاخير فى كنانته ، وبغيره سيموت جوعا .. ولكن عليك اولا ان تقتل الماثل امامك الان ، لانه لن يعود الى شارل ستيوارت صفر اليدين من الميراث الذى اقامه والده حارسا عليه فى لحظته الاخيرة .. ولو غيرك امامى يا مولاى ، لقلت له : « انت رجل فقير ، وهاك مليونا ذهبا ، ولك بعد عودة الملك ما شئت من ضياع ومتاع والقاب .. » ولكنك يا سيدى رجل شريف ، ولا استطيع ان اعرض عليك رشوة مهما بلغت .. وانمـــــا اقول لك : ان مكانك مهيأ بالورد مونك فى صفحات التاريخ ، فاشغل هذا المكان ، واعد الى وطنك الطمانينة والاستقرار .. وانى احتكم الى ضميرك فى هذا الشأن ، واناشدك العدل والحق والخير العام ، ان تضع على مفرق صاحبه الشرعى ، ولا تدعه نهبا لعدوك لامبرت الذى يريده لنفسه . اما انت يالورد ، فانى اعلم مبلغ زهدك فيما ليس لك ...

ولما انتهى آتوس من كلماته هــذه حدق فى وجه مونك بنظــرة صريحة ثابتة ، فقال مونك :

ــ لو غيرك قال لى هذا لسجنته او قتلته ! . انك تراودنى لتفتننى عن واجبى وضميرى . ولكنك رجل شجاع فاضل ، يجب له التقدير والاعتبار .. على انى اقول لك : من هو هذا الملك الطريد ؟ . واى قيمة له واى وزن ؟ . ثم ان مقدرات الحرب اليوم تدور حول مصير انجلترا وحريتها ، وحرية كل بريطــانى حرية شخصية صحيحة ، فكيف تريدنى أن اجازف بكل هذا من أجل هذا الطريد الذى حارب مرارا فهزم فى كل مرة ، وفاوض مرارا ففشل فى كل مفاوضة ، فاقام الدليل على انه قائد فاشل ، وسياسى فاشل ، فماذا يبقى له من المزايا التى تجعل له وزنا ؟. ولو انه اتى فى حياته عملا جـديرا بالاعجاب ، لكنت معه قلبا وقالبا . ولكنه لم يعمل ما يستحق به

ذلك . فكيف اذن تريدني أن أؤيد قضيته الفاشلة ، ولاى غاية ؟ .. واني فى انتظار هذا الدليل من شارل ، اقف موقف الحيدة ، فلا ارفض ما تعرضه باسمه ولا أقبله . فاذهب اليه بهذا المال ، وسأرى كيف يستخدمه ، فاذا البت حصافة وجدارة ، فأنا اول من يشد ازره بحق .. فماذا انت ناصح لشارل حين تضع هذا المليون بين يديه يا كونت ؟

ـ سأنصح له بان يجند فرقتين ينزل بهما شواطىء اسكتلنده التي وفقتم يالورد مونك الى اقرار الحالة فيها ، ثم يبادر بمنح أهلها الحقوق التي قامت الثورة للمطالبة بها ، حتى يقيم الدليل على ان صفحة جديدة قد بدات بتسلمه عرش آبائه . وبعدئذ يحارب عدوه لامبرت حرب المستميت ، فاما انتصر واما مات وسيفه فى يده !

فافتر ثغر مونك عن ابتسامة ساخرة وقال :

ـ نصيحة سديدة يا كونت ، ولكن الملوك للأسف لا يقدرون النصح السديد ، ولا يذكرون من اسدوه اليهم ... والان آن ان نفترق يا سيدى . فالى اين تريد ان يحمل ذلك الذهب ؟

ـ انى أقيم ببيت منعزل عند مصب النهر فى بحر الشمال .

ـ وهل أزمعت الاقلاع فورا يا كونت ؟

ـ بودى لو انتظر ، على ان أقنع اللورد بوجهة نظرى !

ـ اسمع يا كونت .. ان ضباطى يظنون ان لامبرت سيهجم علينا غدا . ولكن عندى من البواعث ما يدلنى على انه لن يفعل هذا ولا بعد غد . ولهذا انصح لك بالبقاء ثمانية أيام . فادعوك الى زيارتى او أزورك لتوديعك قبل سفرك ، وقد انجلت الامور ؟

ـ هذا رأى سديد وفضل من اللورد عظيم . وسأقيم بدارى تلك فى انتظار هذا الموعد !

ـ ولكني أوصيك اذا نشبت المعركة ان تظل بعيدا عنها ، فان الاسكتلنديين لا يحسنون اصابة الهدف ، وربما أصابتك رصاصة طائشة . ولست اود ان اجد نفسى مضطرا الى ارسال المليون بنفسى على صاحبك الامير شارل ، فيقال بعد ذلك ـ وبحق ـ اننى مولته كى يحارب برلمان الجمهورية الذى أمثله !

ـ شكرا لك يا لورد ! . وما أسعدنى ان اكون أول من استطاع ان يمس شغاف ذلك القلب الكبير ، الذى يختفى تحت هذا المعطف !

ـ الى اللقاء اذن بعد ثمانية أيام .

وصاح مونك على أثر ذلك مناديا الصياد . وأمره بدعوة الحراس. وبعد هنيهة حضر الجاويش ، فامره الجنرال باحضار جواد قوى ليحمل الصندوقين قائلا : « انهما صندوقان من البارود ، وأريد نقلهما الى مكان على الشاطىء سأقيم حوله غدا حراسة قوامها مئتا بندقية ، واعلم أن هذه المهمة السرية لها شأن خطير فى الموقعة القادمة . فحذار أن يمس أحد الصندوقين حتى لا ينفجرا ، واجعلهما فى بيت هذا السيد عند الشاطىء ، ولا تطلع احدا على هذا السر على الاطلاق .

ـ انى أعرف طريقا مختصرا مقفرا بين المستنقعات الجافة !

وقد تم الامر على هذا النحو ، واتجه الجاويش وآتوس وجنديان للحراسة مع الجواد الى المنزل المذكور ، فى حين اتجه مونك الى خيمته فى المعسكر .

وما ابتعد القائد عن الدير عشرين خطوة حتى سمع صفيرا طويلا حادا ، فالتفت ولكنه لم ير أحدا ، فاستمر فى طريقه ، ثم تذكر الصياد وانه لم يصرفه فبحث عنه بعينيه ، ولكنه لم يجد له أثرا . ولو أنه دقق النظر لرأى ذلك الرجل وهو يزحف بين الصخور والحشائش كالثعبان . ولرأى من وراء الضباب سفينة الصيادين وقد غيرت مكانها واقتربت من شاطىء النهر . ولكن مونك لم ير شيئا فلم تداخله الريبة فى شىء ، وظن أن الصياد انصرف من تلقاء نفسه !

وفجاة سمع صوت مجذاف يضرب وجه النهر عن يمينه فصاح :

ـ من هناك ؟

ولكن لم يأته جواب ، فامتشق حسامه واستمر فى سيره ، ولكنه لم يستنجد باحد ، لانه رأى ذلك لا يتفق ومكانته .



استيقظ آتوس فى الساعة السابعة صباحا ، فوجد الجاويش

والحــــارسين امام البــاب ، فابدى دهشته من وجودهما فقــال الجاويش :

ـ لقد أمر الجنرال بان نحرسك ونسهر على سلامتك !

ـ وهل الجنرال فى المعسكر ؟

ـ بكل تاكيد يا سيدى ، فقد تركته امس متجها اليه .

ـ انى ذاهب اذن كى اشكره وابلغه حسن قيامك بواجبك !

ثم اغلق باب البيت بعناية واعطى المفـاتيح لتابعه جريمو ، وسار الجاويش وراء الكونت حتى المعسكر ، فوجده فى حركة غير عادية ، وما ان وقعت انظار ويجى ياور الجنرال مونك ، حتى صاح :

ـ هذا هو السيد الذى كان مع الجنرال ليلة امس .

فقال نائب الجنرال وعلى وجهه قلق واهتمام :

ـ ماذا قال لك الجنرال امس ؟

ـ ما هذا السؤال العجيب ؟ ادخلونى على الجنرال ، فمن شانه وحده ان يلقى على الاسئلة !

ـ انت ادرى منا ايها السيد بمكان الجنرال . اما نحن فلا ندرى اين هو ؟!

ـ هذا عجيب جدا ! . فقد فارقتــه امس عند حدود الدير ، واسالوا جاويشكم هذا فانه لازمنى الى الان .

ـ الا تعرف مكانه حقا ام انت لا تريد ان تبوح به ؟

ـ ان امثالى لا يكذبون ، فانا رجل نبيل . ولو كان سيفى فى جانبى لما اجترأ انسان ان يقول لى من الكلام ما لا احب . اما وانا اعزل ، فليس امامى الا ان اعتصم بالصمت !

ـ وماذا كان فى هذين الصندوقين ؟

ـ اسالوا جنودكم الذين حملوهما ، فلديهما الجواب !

ـ لقد قالوا ان بهما بارودا ، وان الجنرال هو الذى قال لهم ذلك ؟

ـ وقال لى امام الجنود ايضا ، ان انتظره فى مكانى ثمانية ايام يعطينى بعدها جواب ما سالته عنه ، فهل لذت بالفرار ؟. كلا . بل انى منتظر ، وليس هذا فعل المتآمر !

ـ هل قال لك حقا ان تنتظره ثمانية ايام ؟

ـ اجل . وكان في وسعي ان اقلع في سفينتي المرابطة امام الشاطىء منذ أمس فليس لبقائي معنى الا انه استجابة لرغبة الجنرال الذي قرر أن يقابلني بعد انقضاء الاسبوع !

ـ لابد اذن ان الجنرال قد مضى في مهمة سرية كعادته بين الحين والحين ، فليس المعهد به ان يخبرنا بغيابه . وسفره في هذه المرة محدود بثمانية ايام . ولكن هل تقسم على صدق ما تقول يا سيدي ؟

ـ لقد عشت في عالم تعتبر فيه كلمتي المجردة كأغلظ الايمان .

ـ ولكن الامر في هذه المرة تتوقف عليه حياة جيش جرار . فما ادرانا ان جريمة لم ترتكب ؟ . وهل يجب أن نستمر في بحثنا أم نتوقف عن البحث حتى لا نفصح للعدو غياب قائدنا . فنرجو منك أن تقدر الظرف وتدخل الطمانينة على نفوسنا .

ـ ما دام الامر كذلك فاعلم انني قدمت للقيام بمحادثات سرية مع الجنرال ، موفدا من قبل حكومتي ، ولم يستطع الجنرال ان يقطع برأي قبل وقوع المعركة المرتقبة ، فوعدني ان يكون لقاؤنا القادم بعد ثمانية ايام .. هذا كل ما عندي !

ـ انى أصدقك يا سيدي ، ولكن اعذرني اذا خامرتني الشكوك ، لانني استبعد أن يهجر القائد جيشه عشية معركة حاسمة . يضاف الى هذا ان صيادين من مواطنيك حضروا أمس مساء وباعونا سمكا ، وكبيرهم هو الذي صحبكما بالمصباح الى الدين . وهذا الصباح لم يعثر للصيادين ولا لسفينتهم على اثر .

ـ واى عجب في هذا ، وهم ليسوا أسرى ، ورغبتهم في العودة الى ديارهم طبيعية ؟!

ـ ولكن الا يحق لنا ان نفترض انه ربما كانت لهؤلاء الصيادين علاقة بكم وانكم متفاهمون ، فقاموا هم باختطاف الجنرال وبقيتم انتم للذر الرماد في العيون .

ـ لكم ان تعتبرونى اسيركم حتى يعود الجنرال ، ولكنى اطلب فقط ان تحدد اقامتى فى بيتى على الشاطىء تحت الحراسة ، لان الجنرال نفسه كلفنى شخصيا بحراسة الصندوقين !

ـ ليكن ذلك ايها السيد !

ووضعت حول بيت آلوس قوة من خمسين رجلا ، وبقى الجميع يرتقبون عودة مونك او ان يأتى خبر يدل على مصيره .

قائد فى قفص

ومر يومان ، استبد فيهما القلق بالمعســـكر الاسكتلندى لغيبة الجنرال ، وفى الوقت نفسه كانت سفينة صيد هولندية عليها عشرة من البحارة تلقى مراسيها تحت جنح الظلام على شاطىء ضاحية من ضواحى لاهاى ، وما بلغت السفينة الشاطىء حتى قفز منها رجل فاتجه نحو منزل فى القرية تأكد منه بعناية ، ثم اقترب من باب الحـــديقة فاستقبله نباح كلب ، وايقظ ذلك النباح خادم البيت الشيخ ، فاسكت الكلب ثم سأل الطارق الغريب : « ماذا تريد ؟ » .

ــ أريد صاحب الجلالة الملك شارل الثانى !

ــ وماذا تريد منه ؟

ــ أريد ان اتحدث اليه !

ــ ومن انت ؟

ــ انى وربى أكره محادثة الناس من وراء الابواب ، فافتح .

ــ قل اسمك اولا .

ــ ولا احب كذلك ان اذكر اسمى فى الخلاء ، فافتح ولا تخف .

ــ لعلك تحمل انباء .

ــ اجل .. وانباء غير منتظرة ، فهلا فتحت ؟

ــ وهل تقسم بشرفك ان هذه الانباء تستحق ايقاظ جلالة الملك ؟

ــ اؤكد لك ان الانباء التى احملها تساوى ثقلها ذهبا !

ــ ومع هــذا لا استطيع ان افتح لك يا سيدى حتى تذكر لى اسمك !

ــ ان اسمى لن يفيدك شيئا ولن يدلك على شىء ! . ولكن ليكن ما تريد .. اننى أدعى الشيفالييه دارتانيان .

مفتاح الشيخ : « يا الهى ! . انه لشرف عظيم ! . لقد خيل الى اننى اعرف هذا الصوت ! » .

وفتح الباب فدخل دارتانيان ورأى الشيخ فى ضوء المصباح ، فصاح :

ــ ربـاه . هذا انت يا بارى . ان فرحى بلقائك عظيم ، فأيقظ الملك !

ــ انك قادم من عند الكونت ولا شك ؟

ــ اى كونت ؟

ــ الكونت دى لافير .

ــ من عند آتوس ؟ كلا ! . هيا ايقظ الملك .

فلم يجد بارى بدا من طرق باب الملك ، فعوى من داخل الغرفة كلب صغير ، ثم سمع صوت الملك من داخل الغرفة يسأل : « ماذا حدث ؟ » .

ــ هذا يامولاى هو الشيفالييه دارتانيان يحمل الى جلالتكم انباء!

فانفتح الباب وظهر فى الغرفة نور مصباح قوى ، وظهر مكتب الملك وعليه أوراق كثيرة ، فقد كان الملك مكبا على الكتابة ، وهتف قائلا : « أين هو الشيفالييه ؟ » . لانه لم ير أمامه الا صيادا ، فضحك دارتانيان وقال :

ــ انظر الى يا مولاى ، الست تعرفنى ؟

ــ بل اعرفك جيدا ، فقد قابلتك فى قصر بلوا . وكان لتلك المقابلة احسن الاثر فى نفسى ، اتقول انك تحمل اخبارا !

ــ اجل يا مولاى !

ــ من ملك فرنسا ولا شك ؟

ــ كلا يا مولاى ، لم آت من قبل ملك فرنسا ، بل من قبل نفسى . والانباء التى أحملها من محصول جهودى الشخصية ، ومع هـذا اعتقد انها ستحظى برضاء جلالتكم !

ــ تكلم يا سيدى .

ــ لقد شكوتم جلالتكم فى بلوا ، لدى جلالة ملك فرنسا ، من

الصعوبات التي تلقونها في سبيل ارتقاء عرشكم ، واهم هذه المصاعب نقص المال والرجال وذكرتم جلالتكم أن اهم ما يحول دون انتصاركم هو قائد جيش الجمهورية ، الجنرال « مونك » . اليس هذا هو مضمون كلام جلالتكم ؟

ـ ولكن هذا الكلام لم تقصد به اذن غير اذن الملك لويس الرابع عشر !

ـ وسترون جلالتكم الان انه من حسن الطالع ان اذنا غير اذن جلالته قد طرقها هذا الكلام ، واثار فيها العناية والاهتمام ... فهل اسم ذلك القائد هو « مونك » حقا يا مولاى ، ام ترانى اخطات السمع ؟ .

هذا هو اسمه فعلا . ولكن فيم كل هذه الاسئلة ؟

ـ ان التقاليد جرت يا مولاى الا يسال الناس الملوك ، بل الملوك هم الذين يسالونهم ، ولكنى استميح جلالتكم عذرا ، واسال سؤالا آخر : الا يسهل مهمة جلالتكم أن تلتقوا بذلك الجنرال وتتفاهموا معه وتحاولوا اقناعه وكسبه لصف قضيتكم ؟

ـ يا ليت ! فمصير قضيتي معلق بكلمة من هذا القائد .. ولكن ما الذى استطيع اغراءه به ، وانا ملك بغير جيش ، وبغير مال ؟

ـ لحسن الحظ يامولاى ان رايي في هذا ليس مثل راى جلالتكم .

ـ ماذا تعنى ؟

ـ اعني انني استطعت بغير جيش ، وبغير مال طائل ان اكسب الجنرال !

ـ تكسبه ؟

ـ اجل ، كسبته ، بل اخذته اخذا ، فقد ذهبت الى انجلترا بمفردى واستوليت على هذا الجنرال !

ـ استوليت على مونك ؟ واين كان ذلك ؟

ـ في قلب معسكره ، واحضرته الى جلالتكم !

ـ احضرته لى ؟

ـ اجل يامولاى .. اترانى اسات صنعا ؟ لقد جئت به فى قفص

من الخشب . حتى لا يهلك لو وضعته فى صندوق خال من الثقوب !

ـ يا الهى !

ـ هل يروق فى عينى مولاى أن يراه ويتحدث اليه ، أم ترى يأمر مولاى بالقائه بقفصه في البحر ؟!

ـ هل تتكلم جادا يا سيدى ؟ . اذا كنت تمزح ، فهى اهانة يا سيدى هل فعلت حقا هذه المعجزة الفذة ؟ . ان هذا مستحيل !

ـ أيأذن مولاى فى ان افتح النافذة ؟

ثم فتح النافذة ، وصفر صفيرا حادا طويلا ثلاث مرات ، وقال بعد ذلك للملك بكل هدوء !

ـ سيحملونه الى جلالتكم توا يا مولاى !

ولم يمض قليل حتى أحضر دارتانيان القفص الخشبى الضخم ، فوضعوه في الردهة امام غرفة الملك ، ثم صرفهم دارتانيان لينتظروه في السفينة ، وأغلق الابواب والنوافذ بعناية ، وبعد ذلك فتح باب القفص وقال للجنرال الذى ظل بداخل القفص :

ـ سيدى الجنرال ، انى اعتذر اليك عن معاملتى اياك معاملة لا تليق بقدرك ، ولكنها الضرورة القاسية ... وكان لابد لى أن اجعلك تعتقد انني صياد سمك فعلا ، سلوكا وتربية ومعاملة . اما الان يا جنرال فانت حر ، وفى وسعك ان تنهض وتسير !

ثم فك وثاق الجنرال فنهض ، ولكنه جلس ثانية دون ان يتكلم ، ففتح دارتانيان باب مكتب الملك وقال بصوته القوى :

ـ مولاى ! ها هو عدو جلالتكم السيد مونك ، وهو فى انتظار امركم فيه . أما انت يا جنرال فاعلم انك فى حضرة صاحب الجلالة شارل الثانى العاهل الاعظم لبريطانيا العظمى !

فرفع مونك نظرة فاترة الى الملك الشاب وقال :

ـ لست أرى هنا ملكا لبريطانيا العظمى ، بل لا ارى هنا شخصا يستحق أن يطلق عليه اسم الرجل الشريف ، فانه باسم الملك شارل الثانى جاءنى رسول توسمت فيه النبل والامانة ، فاذا به ينصب لى شركا وضيعا ، فاذا كنت قد وقعت فى ذلك الشرك فالذنب ذنبى . أما انتما ، ايها المحرض وايها المنفذ ، فاعلما ان جسدى بين أيديكما ،

اما روحي وارادتي فلا سبيل لكما اليهما ، فاقتلاني إذا شئتما ، اما الكلام فاني سأقلع عنه ولن افتح فمي حتى ولو بالاستغاثة مهما بلغ من عدوانكما !

وكان يقول هذه الكلمات في تصميم المتعصب الذى لايتزعزع ، وكان دارتانيان يعرف مبلغ عناده ، فقد رفض ان يذوق طعاما او شرابا طيلة اليومين اللذين قضاهما على ظهر السفينة ، فقال له :

ـ ان عبارتك هذه جميلة بليغة ، ولكنها لا تفيد أحدا على الاطلاق حتى ولا أنت ، فجلالة الملك كان يريد محـــادثتك ، فكنت ترفض الاتصال بسفرائه . اما الان وانت امامه وجها لوجه بقوة خارجة على ارادتك . فلماذا لا تتكلم حتى لا تزيد الامور تعقيدا ؟

ولم تنفرج شفتا مونك بحرف واحد ردا على هذا الكلام ، فأدرك الملك أنه لا فائدة من استدراجه الى الكلام ، فقال له :

ـ انك محق في استيائك ! . ولهذا لا اطلب اليك ان تتكلم ، بل كل ما اطلبه منك هو حسن الاصغاء . لقد وجهت الى منذ لحظة تهمة التآمر والتحريض عليك . وانني ارسلت رسولا الى نيوكاسل فنصب لك شركا . وهي عبارة لا اظن ان الشيفالييه دارتانيان الماثل معنا قد أدرك مرماها . فاعلم اذن أن الشيفالييه دارتانيان انما أقدم على ما أقدم عليه بدافع من ذات نفسه ، وأؤكد لك أنني لم اعلم قبل الليلة بما دار في نفسه : ويجب كذلك ان أعرف الشيفالييه دارتانيان بأمر يجهله حتى الان ، وهو ان الكونت دى لافير رحل الى نيوكاسل بعلمي ، ليفـــاوض الجنرال ، في الوقت الذى تدخلت أنت فيه يا شيفالييه فقطعت المحادثات باختطاف الجنرال .

فصاح دارتانيان متعجبا : « آتوس في نيوكاسل ؟ يا للشيطان ! لقد خيل الى أن هذه القامة مألوفة عندى ! » .

فقال الملك : « انى اعرف اخلاصك ياشيفالييه ، وانما أردت الخير . وثق يا جنرال مونك انني ، واقسم لك بشرفي ، لم اهدف مطلقا الي نصب شرك لك ، وستعرف بعد قليل ان نواياى نحوك تخالف ذلك كل المخالفة ، فهل تتفضل بأن تتبعني يا جنرال ، وكذلك انت يا شيفالييه .

وخرج الملك من البيت ، وتبعه مونك ودارتانيان ، فاذا الملك يمشى فى الطريق الذى جاء منه دارتانيان ، فلم يلبث هواء البحر البارد ان صافح وجوههم ، وهناك حيا الملك الرجلين وقال :

– ستركب البحر ياجنرال فى هـذه الليلة ليعود بك الشيفالييه الى نيوكاسل وانى أترك الشـــــيفالييه مطمئنا الى شرفك ورعايتك لحياته . وستكون الرحلة فى سفينتى الخاصـة ، يقودها ربانى ، والان مع السلامة .

فظهرت الدهشة على وجه مونك ولـكنه لم يتـكلم برا بيمينه . واستأذن دارتانيان لحظة فأحضر امتعته من سفينة الصيد ، ونقـد رجاله بعض اجرهم ، وأمرهم أن ينتظروه فى كاليه ريثما يعود :

ثم ركب دارتانيان مع مونك فى السفينة فاقلعت بهما ، وكان مونك قد تحرر بركوبها من قسمه فى عدم الكلام ، بيد انه لم يخـاطب دارتانيان الا فى حالات الضرورة القصوى . ولكن يدعوه الى مشاركته الطعام فى ميعاده .

وبعد يومين وليلتين وصلت السفينة الى قرب شاطىء نيوكاسل، عند الموضع الذى اختاره آتوس للاقـامة هنـاك ، ودخلت السـفينة مصب النهر ، ثم قفز مونك ومعه دارتانيان الى البر وهو متذمر من هذا الوضع المهين ، وكان مونك يسير بخطوات واســعة جدا كانه لا يصدق بالنجاة وبالعودة الى أرض انجلترا مرة اخرى .

وكانا يقتربان من البيوت القليلة المتناثرة على الشـــاطىء ، حين صاح دارتانيان وهو يشير باصبعه الى بعيد : « هذا منزل يحترق » !

فرفع مونك ناظريه فرأى الدخان والنيران تلتهم منزلا ، فاسرع فاسرع الرجلان نحوه ، فاذا من حول هذا المنزل جنود يلوحون نحو الحريق بأسلحتهم وقبضات أيديهم . فوقف مونك وقال :

– قد يكون هؤلاء جنودى ، وقد يكونون جنود لامبرت .

ففهم دارتانيان مغزى هذه العبارة ، لان الجنرال كان يخشى فعلا أن يكون لامبرت قد التحم مع جيشه اثناء غيابه وكسب الموقعة ، وفى هذه اللحظة اقبل بعض الصيادين مذعورين ، فسالهم مونك عن الموضوع ، فقالوا :

ـ كان يسكن فى هذا البيت رجل أجنبى ، وحدث أن استراب الجنود به ، فارادوا الدخول عليه بحجة اقتياده الى المعسكر ، ولكنه لم يعبأ بكثرتهم وهدد بقتل أول من يقتحم عليه الباب . فلما تحدى احدهم هذا التحذير ، أرداه الفرنسى بطلقة من مسدسه . فاهتاج الباقون واحتدم غضبهم فاطلقوا أكثر من خمسمائة رصاصة على البيت ، بيد أن الفرنسى محصن بالجدران ، وكلما دخل احد الجنود من عتبة البيت صرعه طلق نارى من يد خادم هذا الفرنسى وهو لا يخطىء الهدف ابدا . اما اذا أراد احد الدخول من النافذة ، فالسيد هو الذى يتولى امره . وقد قتل سبعة حتى الآن :

فاستخف الطرب بدارتانيان وصاح : « مرحى يا آتوس يا اشجع النبلاء ساخف لنجدتك ! » .

فقال مونك للصياد وهو يستوقف دارتانيان بيده :

ـ وجنود من هؤلاء ؟

ـ جنود الجنرال مونك ؟

ـ ألم تنشب اذن معركة ؟

ـ ولماذا تنشب ؟ لقد ذاب جيش لامبرت مثل الثلج اذا جاء الصيف ، فهرب جنوده وانضموا الى جيش مونك . وبعد أسبوع واحد لن يبقى مع لامبرت خمسون رجلا !

وفى هذه اللحظة انطلقت عاصفة جديدة من الطلقات النارية ، فقد اشتد هياج الجنود ، وزادت ألسنة النار فى مخازن البيت اشتعالا ، فهم دارتانيان بأن يهجم على الجنود ، ولكن مونك استمهله ثم تقدم معه نحو مكان المعركة فاذا ضابط الجنود يصرخ فى رب البيت المتصم به .

ـ ستحترق حتى تصير رمادا . الا اذا قلت لنا عن مكان الجنرال مونك :

ـ ابعد جنودك حتى اخرج واتوجه معك الى المعسكر لمقابلة نائب الجنرال والا فانى ساقاتلكم حتى النهاية !

وما سمع دارتانيان صوت آتوس حتى نفد صبره فامتشق

حسامه . بيد أن مونك استمهله مرة أخرى ثم قال بصوت قوى كالرعد :

ــ ماذا جرى ؟ . لماذا هذه النيران والضجة ؟

فصرخ الجنود فى صوت واحد :

ــ الجنرال ! .. الجنرال !

وسقطت السيوف من الايدى ، ثم اطل آتوس ، ليجد دارتانيان يقتحم الدار عليه ويعانقه ، فى حين راح الجنرال يؤنب جنوده على ما صنعوا ، ويهددهم باعدام من لم يصرعهم الكونت ، لانهم تصرفوا بغير اذن منه مع رجل فى ضيافته ، ثم صافح الكونت ودعاه الى التوجه معه هو ودارتانيان الى خيمة قيادته فى المعسكر .

فلما امسى الرجال الثلاثة منفردين ، طلب الجنرال الى دارتانيان ان يبتعد عنهما قليلا ، لانه يريد ان يتحدث الى الكونت حديثا سريا ، ثم تناول الجنرال ورقة خط فوقها سطرا واحدا ، ثم مهره بامضائه وختمه بخاتمه وسلمه لآتوس قائلا :

ــ ارجو ان تحمل هذه الرسالة الى الملك شارل الثانى ، وستقلع اليوم مع الصندوقين اللذين بهما الكنز فى السفينة التى حملتنى الى هنا !

ثم نادى دارتانيان وقال له :

ــ قبل صديقك مودعا ، لانه سيعود الان الى هولندا :

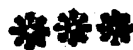
ــ الى هولندا ! . وانا ؟

ــ انت حر فى الذهاب معه ، ولكنى ارجو منك ان تبقى فهل ترفض رجائى ؟

ــ كلا يا جنرال ! فانا رهن اشارتك .

وودع دارتانيان صاحبه ، وهو يقول فى نفسه :

ــ يخيل الى ان اسهم مؤسسة بلانشيه ستعود الى الارتفاع .



وعلم مونك ليلة وصوله ان لامبرت ارسل فى الليلة السابقة يطلب مقابلته للمفاوضة فى الصلح ، بعد ان راح جنوده ينفضون عنه ليلة بعد ليلة ، جماعات جماعات . فأرسل مونك يعلن استعداده لهذه المقابلة .

وأبدى لامبرت فى هذه المقابلة رغبته فى عقد تحالف بين القائدين ، فطلب مونك مهلة للتفكير مقدارها ثمانية ايام . وكذلك عاد لامبرت الى معسكره لا يحمل معاهدة صلح ، ولا اى حل يطمئن اليه جنوده القلقون ، فازداد عدد الفارين من صفوفه للانضمام الى جيش مونك، حتى لقد بلغ متوسط عدد الفارين الفا فى كل يوم ، ثم الفين ثم أربعة آلاف . فادرك لامبرت انه اذا صبر الى نهاية الاجل المطلوب ـ وكان قرار مونك ليس هو الصلح بل المناجزة فى معركة فاصلة ـ فان معنى ذلك هو القضاء عليه نهائيا . ولهذا ارتحل عن مواقعه فى الليلة السابقة عائدا الى لندن ، ليحاول اعادة تنظيم صفوفه مرة أخرى !

وكان هذا بمثابة نصر حاسم لمونك ، فقد امن على خطوطه الخلفية، فزحف على لندن زحف الواثق من النصر ، فكان جيشه يتضخم كلما مر بقرية ، لان سلطته الشعبية مستمدة من البرلمان الذى يدافع عنه!

وعلى ابواب لندن تمهـل قليلا ، حتى لا يثير حربا اهليـــة فى شوارع العاصمة ، ثم هجم على غرة فطرد الحزب العسكرى الذى يقوده لامبرت ، ثم واجه البرلمان واعلن ان الحكم الجمهورى لم يثبت صلاحيته للاستقرار ، وانه يجب استدعاء الملك شارل الثانى .

وقد اقدم مونك على هذا الاعلان معتمدا على خمسين الف سيف، وعلى نصف مليون من الجماهير المعجبة به ، وفى غمرة من الهتاف وعاصفة من التصفيق ، سرت فى العاصمة انباء اقلاع سفينة من لاهاى مقلة الملك شارل الثانى وآله . فقال مونك :

ـ أيها السادة ، انى راحل لمقابلة الملك الشرعى على الشاطىء . فمن أحبنى فليتبعنى !

وصحب دارتانيان القائد مونك ، الذى قال له فى الطريق :

ـ انا لا اكتمك سرا ، فقد حضر الملك بناء على الرسالة التى بعثتها اليه من الكونت دى لافير . ولم يكن فيها الا سطر واحد هو « انى انتظر جلالتكم يا مولاى بعد ستة أسابيع فى ميناء دوفر » .

ـ انها وربى لعبة جريئة وضربة صائبة . ولا غرو فهى ضربة معلم !

ـ وهى شهادة اعتز بها ، لصدورها من خبير فى ضربات المعلمين !

وكانت هذه هى الاشارة الوحيدة التى لمح بها مونك الى اختطافه وترحيله الى هولندة فى ذلك القفص اللعين !



دخل الملك مدينة دوفر ، ثم عاصمته لندن دخولا فخما ، يحف به أخوته ووالدته واخته ، وكان استقبال الشعب له رائعا ، لانه جرب الفوضى ، فكانت عودة الملك الشاب ابن الملك المقتول بمثابة أمل فى الاستقرار والرفاهية . وقد شاركت الطبيعة فى روعة الاستقبال بشمس ساطعة وجو بديع ، فتوردت وجنتا الملك وكأنما نفخت فيه روح جديدة .

وفى لندن توجه دارتانيان الى الفندق الذى كان قد نزل فيه مع اصحابه منذ سنوات حين حاولوا انقاذ الملك شارل الاول من الاعدام . واذا بآتوس يدخل عليه هناك ، فكان لقاؤهما لقاء شائقا ، وكان عودة الملك انتصار شخصى لهما . بيد أن الانقباض لم يلبث أن عاود دارتانيان ، لسوء رأيه فى الملوك ونسيانهم المعروف ونكرانهم الجميل . فقص على آتوس قصة الاتفاق الذى عقده مع بلانشيه ، وكيف انفق ماله كله فى تمويل فرقة اختطاف مونك ، حتى بات مفلسا تمام الافلاس . فأكد له آتوس ان الملك مقدر فضله وان كان لا يعلم طبعا انه قد صار مفلسا . كما يعلم الملك أيضا انه لولا اختطاف مونك لما أمكن بعد ذلك كسبه لصف الملك وعودة جلالته الى العرش . ثم قص آتوس على دارتانيان السر فى رحلتـــه الى نيوكاسل وقصـة استخراجه المليون المدفون فى كهف الدير . فصاح دارتانيان :

ـ مرحى مرحى . اذن فجلالته غنى الان ؟!

ـ وما دليلك على هذا ؟

ـ أليس يملك مليونا ؟

ـ بل لقد صرفه قبل حضوره الى هنا فى شراء الثياب اللائقـة والجواهر والمعاطف والعطور لآل بيته ولنفسه ، كى يظهروا بالمظهر اللائق فى يومنا هذا .

ودخل عليهما صاحب الخان فى هذه اللحظـــة وفى يده خطاب باسم الكونت دى لافير ، ففضــــه وهو يبتسم ، فاذا به من بارى وصيف الملك ، فقراه بصوت مرتفع ، فاذا فيه ما يلى :

« سيدى الكونت : ان الملك قد ابدى اسفه لحرمانه من وجودكم بجانبه اليوم عند دخوله عاصمته ، ولهذا كلفنى جلالته ان اطلب اليكم ان تتذكروا جلالته ولا تغفلوا الاجتماع به . وسينتظركم جلالته هذا المساء فى قصر سان جيمس فيما بين التاسعة والحادية عشر .. وانى لفخامتكم يا سيدى الكونت الخادم الخاضع المطيع .. بارى » .

فقال آتوس عند انتهائه من تلاوته :

ـ ها انت ذا ترى يا عزيزى دارتانيان ان الملوك ليســوا سواسية فى النسيان .

ـ هذا بديع ، وسأسير معك حتى باب القصر ، كى يكون لى فى ذلك نزهة لخاطرى وينعشنى الهواء !

ـ بل تدخل معى يا صاحبى ، فانى اريد ان اقول لجلالة الملك ...

فقاطعه دارتانيان فى اباء وشمم قائلا :

ـ اذا كان هناك يا صديقى ما هو أسوأ من التسول واستجداء الاكف ، فذلك هو توسيط الناس فى ذلك الاســـتجداء . فهيا بنا يا صاحبى ، وسادلك فى الطريق على منزل الجنرال مونك الذى كان قد اقامنى ضيفا عليه فيه . وسترى انه بيت جميل ، اجمل كثيرا من بيوت قادتنا فى فرنسا !

وخرج الصديقان الى الطريق ، فاذا الشوارع كأنهـــا شعلة من الانوار ، او مظاهر الفرح والمرح فى كل مكان ، والجميع يهتفون باصوات حماسية بحياة الملك الصالح شارل ، والوجوه قد احتقنت بحرارة الحماسة ونشوة الشراب .

ومرا فى طريقهما ببيت مونك الذى لابد من المرور به عنــد التوجه الى مقر سان جيمس ، فاستأذن دارتانيان فى الدخول لبعض حاجته ، فان حوائجه كانت لا تزال فى ذلك البيت فى غرفتــــه الخاصة ، وقال لصاحبه :

ـ اريد يا عزيزي آتوس ان اترك كيسي وما فيه من دراهم يسيرة هنا ، خوفا عليه من النشالين في هذا الزحام . فانه يكفي انني حضرت الى انجلترا ومعي الالاف المؤلفة ، ولم يبق معي الان الا أجر السفر للعودة الى وطني . فلا اريد ايضا ان أحرم من هذه الدراهم فاعبر البحر سباحة او استدين اجر السفر ... فانه يخيل الى أن جلالة الملك شارل قد نسي حتى اسمي !

فلم يجب آتوس بشيء ، واخترق دارتانيان الباب ثم البهو ، واذا باحد الحجاب ، وهو جندي سابق من جنود مونك يقول لدارتانيان وهو يوقفه :

ـ عفوك يا سيدي .

ـ ماذا وراءك ؟ لعل الجنرال ايضا قد طردني من بيته ؟ لم يبق الا هذا !

ولم يفهم الحاجب شيئا من هذه الكلمات ، لانها كانت باللغة الفرنسية ، بل قدم الى دارتانيان خطابا مختوما وهو يقول : « انه من الجنرال ! » .

ففضه دارتانيان ، ووقف الى جانب آتوس ليقرآه معا ، فاذا فيه ما يلي :

« سيدي دارتانيان .. ان الملك قد اسف كثيرا لعدم اشتراككم في موكبه . وقال جلالته انك أوحشته كثيرا كما أوحشتني شخصيا ياربانى العزيز . وما من وسيلة لاصلاح هذا وتعويضه الا شيء واحد . فان جلالة الملك ينتظرني في سان جيمس في الساعة التاسعة ، فهل لك في الحضور في هذا الوقت معي ؟ فان جلالة الملك يحدد لك هذه الساعة للمقابلة التي منحكم اياها .. مونك » .

وكانت الساعة تدق مؤذنة بالثامنة مساء ، حين احتل الصديقان مكانهما في بهو الانتظار الحاشد برجال الحاشية واصحاب الالتماسات . فكان كل واحد من الحاضرين يرمقهما متعجبا لبساطة

زيهما وغرابته ، لانه يباين الزى الانجليزى ، ولكن سحنتهما كانت تعوض هذه البساطة بما تمثلانه من قوة فى الشخصية ونبل واعتداد بالنفس .

وصدرت عن نهاية البهو ضجة ، مؤذنة بوصول الجنرال مونك يتبعه اكثر من عشرين ضـــابطا من اركان حربه ، تعلو وجوههم الابتسامات تفاؤلا بمستقبل قائدهم الذى يرجع اليه الفضل فى عودة الملك الى العرش ، واذا بالقائد يلتفت الى ضباطه ويقول لهم بصوت مرتفع :

ـ تذكروا أيها السادة اننى منذ الان لست شيئا . فلئن كنت بالامس القائد العام لجيش البرلمان على عهد الجمهورية ، فان هذا الجيش قد اصبح اليوم جيش الملك ، وساضع بين يدى جلالته الان مقاليد السلطات التى كانت فى يدى . فهو اليوم قائد الجيش الاعلى ومصدر السلطة وولى الامر !

فارتسمت على الوجوه علائم الدهشة ، ثم اذا بهذا الجمع الحاشد الذى كان يلتف حوله فى حلقة صغيرة ، وقد وسع من دائرة وقوفه ، ثم تلاشى ذلك العدد الكبير من المتحمسين والمتملقين، فوجد مونك نفسه جالسا فى انتظار المقابلة مثل سائر الجالسين !

وفجاة فتح باب مكتب الملك ، وظهر فى سدته الملك الشاب يتقدمه ياوران من ضباط ياورانه ، فقال :

ـ مساء الخير أيها السادة . هل الجنرال مونك هنا ؟

فقال الجنرال الشيخ : « ها انذا يا مولاى ! » .

فاسرع الملك نحوه ، وتناول كلتا يديه بحرارة عظيمة وقال باعلى صوته :

ـ لقد وقعت منذ لحظة يا جنرال براءة تعيينك دوق البرمال ، وفى نيتى الا يضارعك احد فى النفوذ والسلطان والثراء فى هــذه المملكة ، فانه لم يكن لك ند فى صدق الولاء والشجاعة والبراعة . فاعلموا أيها السادة ان الدوق البرمال هو القائد العام لجيوشنا فى البر والبحر ، فاعرفوا له حقه ومكانه على هذا الاعتبار .

فاسرع الموجودون جميعا يحفون بمونك ، واخذ هو يتلقى تحياتهم دون ان يتخلى عن جموده المألوف ، ومال دارتانيان على اذن آتوس وقال :

ـ من يصدق ان هذه الدوقية ، وهذه القيادة العامة لجيوش البر والبحر ، وكل هذه العظمة والنفوذ والجاه ، كانت في قفص من الخشب طوله ستة اقدام وعرضه ثلاثة اقدام .

ولمح مونك في هذه اللحظة الصديقين اللذين وقفا بعيدا ولم يتقدما لتهنئته ، ورآهما يتهامسان ، فقال لهما مبتسما :

ـ انكما تتحدثان عني ؟ . فهيا نتحدث معا عن الملك ، لان جلالته قد حدد لكما موعدا للمقابلة ، ولندخل هذه الغرفة الخالية حتى يحين الموعد .

ولمح الملك الصاحبين في هذه اللحظة ، فاقبل نحوهما متهللا وحياهما بالفرنسية ، ثم قال لمونك :

ـ ارجو منك يا دوق ان تدخل هذين السيدين الى مكتبي !

ثم صرف الحاشية ليتفرغ للاجتماع بهما ، فلما دخل المكتب سلم على دارتانيان باشتياق ، فقال دارتانيان :

ـ ان سروري لا يقدر اذ احيي جلالتكم في قصركم العامر سان جيمس .

ـ انني لن أنسى يا سيدي انك اقدمت على خدمتي من تلقاء نفسك ، وان الخدمة التي اديتها كانت عظيمة جدا وتدل على بساطة نادرة ، ولولا اننا نخشى ان نجور على حقوق قائدنا العام لعرضنا عليك منصبا يليق بك في اسلحتنا !

ـ مولاي .. لقد تركت خدمة ملك فرنسا وقد عاهدته الا اخدم بعد ذلك ملكا سواه !

ـ وهذا يحزنني كثيرا ، لانني كنت احب ان اقدم لك الكثير من الخير لانني مسرور منك كثيرا ، فهل يستحيل علينا ان نجعلك تخل بوعدك ؟ ساعدني في هذا يادوق . فما رأيك يا سيد دارتانيان اذا عرضت عليك القيادة العامة للفرسان في جيوشنا ؟

ـ اجدنى آسفا يا مولاى لرفض عروض جلالتكم السنية ، فان الرجل النبيل لا يملك شيئا اثمن من كلمة الشرف .

ـ اذن اعتبر هذا الموضوع منتهيا !

ثم التفت الى آتوس ، تاركا دارتانيان غارقا فى لجج من الخيبة ، وتناول الملك يد آتوس وقال له :

ـ لقد كنت لى يا كونت أبا ثانيا ، والخدمة التي اديتها لى تجل عن المكافأة والشكران ، فلا قبل لى بالقيام بحقك . ومع هذا فكرت غاية جهدى فى مكافاتك ، ولما كنت يا كونت قد حصلت من والدى على وسام ربطة الساق من طبقة فارس ، وهو وسام ليس جميع ملوك اوربا ممن يحملونه . كما قدمت اليك ملكة فرنسا الوالدة الوصية على العرش وسام الروح القدسى من طبقة فارس ، وهي احدى قلادتين يحمل الاخرى ملك فرنسا .

ـ مولاى ! الى أنا تلك القلادة ؟.. أاحمل القلادة التى لا يحملها فى بلادى الا ملك فرنسا نفسه ؟!

ـ ذلك انى أريد يا سيدى أن تكون فى بلادك ، وفى كل مكان ، ندا لكل من يكرمهم الملوك بأقصى ما يملكون من آيات الاحترام والتقدير !

وانتزع الملك من عنقه تلك القلادة المرصعة ، فوضعها حول عنق آتوس وهو يقول له :

ـ الان أشعر يا كونت بان والدى يبتسم لى فى قبره !

ثم انهض الكونت الذى كان راكعا لتلقى القلادة وقبله . ثم التفت الى مونك وقال له :

يا جنرال .. عفوا انما اردت ان اقول يا دوق ، ولكنى اخطات لان كلمة دوق قصيرة جدا ولا تناسب فى طولها ما احب ان تنادى به من القاب الاعزاز والتكريم ، واريد ان تكون قريبا من عرشى على الدوام كى اناديك يا أخى ، فلتكن شبه اخ لى منذ اليوم ، فانى عينتك نائب ملك ايرلنده واسكتلنده .

فتناول الدوق يد الملك ، ولكن بغير حماسة ، كعادته فى كل

شيء . وكان الملك قد قسم الانعام على مونك ، حتى يجعل فرحته مكررة . اما دارتانيان فزاده هذه الانعام الجديد حسرة على نفسه ، حتى لخشي على عقله ان يذهب ، وبدا على وجهه ما يعتمل فى نفسه . فلم يستطع الملك كتمان ابتسامه . ولما كان مونك يتاهب فى هذه اللحظة للاستئذان فى الانصراف ، قال له شارل :

ـ اذاهب انت يانائبى العزيز ؟

ـ اذا راق لدى جلالتكم ، فان حوادث اليوم قد أتعبتنى وارانى فى حاجة الى الراحة !

ـ ولكن هل ترحل من غير السيد دارتانيان ؟

ـ ولماذا لا أرحل من غيره يامولاى ؟

ـ انك تعرف السبب جيدا يا دوق .

فحدق مونك فى الملك بدهشة عظيمة ثم قال :

ـ استميح جلالتكم العفو . فانى لا أعرف ماذا يعنى مولاى !

ـ يجوز انك نسيت .. ولكن السيد دارتانيان يستطيع أن يذكرك .

فارتسمت الدهشة على وجه دارتانيان ، فقال الملك : « الست تساكن السيد دارتانيان يا دوق ؟ » .

ـ أجل يا مولاى ، لى شرف استضافة الشيفالييه فى بيتى .

ـ ألست ترى أن العكس كان ممكنا يا دوق ، لان الاسير كان يسكن دائما فى بيت آسره ؟

ـ فاحمر وجه مونك وقال : « هذا حق . فانا أسير الشيفالييه دارتانيان ! » .

ـ انت أسيره طبعا يا مونك ، ما دمت لم تفتد نفسك حتى الان . ولكن لا تقلق ولا تنزعج لهذا الخاطر . فانا الذى انتزعتك من أسر الشيفالييه دارتانيان ، وعلى هذا سأدفع الفدية عنك !

فعاذت الى عينى دارتانيان أمارات المرح ، وظهر فيهما البريق حين تقدم منه الملك شارل وقال :

ـ ان الجنرال ليس غنيا ، ولا يستطيع ان يدفع الفدية التى

تليق به ولكنى اغنى منه بالتأكيد ، ثم هو صار دوقا ، واذا لم يكن ملكا فهو شبه ملك ، ففديته الان قد تثقل على كاهلى ، فأرجو منك يا شيفالييه أن تتساهل معى ، فكم تطلب ؟

ـ مولاى ، اننى حين حصلت على شرف أسر الجنرال ، لم يكن دوقا ولا نائب ملك ، فالفدية المستحقة عنه فدية جنرال ليس الا .

وما على الجنرال الا ان يسلمنى نفسه فأعتبر نفسى قد استوفيت حقى ، لانه ليس فى العالم شىء له من القيمة ما للجنرال الا سيفه !

فصاح الملك : « هذا وربى عرض كريم من رجل كريم . أليس كذلك يا دوق ؟ » .

ـ اى وشرفى ؟ هو كذلك يا مولاى !

ثم جرد نفسه وقال لدارتانيان :

ـ سيدى . هاك ما طلبت ، وقد يكون لدى غيرى سيف أكرم من هذا واحسن ، ولكنه على تواضع عنصره لم اسلمه من قبل لانسان.

فتقبل دارتانيان فى زهو شديد ذلك السيف الذى غير تاريخ أمة واقام ملكا على عرش . وصاح الملك شارل الثانى :

ـ ماذا ؟ أيخرج من مملكتى سيف رد الى عرشى فلا يظهر يوما بين جواهر تاجى وصولجان وشارات ملكى ؟. كلا !. لن يكون هذا ابدا ! .. يا شيفالييه دارتانيان ، انى اعرض عليك مائتى الف جنيه فى مقابل هذا السيف فاذا كان ذلك المبلغ قليلا فاستزدنا نزدك !

ـ بل ما أقله يا مولاى من مقابل تافه لشىء جليل . ثم انى لا اريد بيعه ولا أرضى به بدلا . اما ان رغبتم فيه جلالتكم فهو أمر لا يعصى ، اخضع له وانزل عليه مضطرا صاغرا . هو لجلالتكم بغير مقابل !

ثم تناوله من طرف سنه وقدم مقبضه الى الملك ، فانفجر الملك ضاحكا وقال : « رجل كريم ، ورفيق مرح طيب المعاشرة .. أليس كذلك يا دوق ؟ أليس كذلك يا كونت ؟ انه يعجبنى كثيرا وانا احبه ! » .

ثم اتجه الى المكتب وتناول ورقة كتب عليها اذن صرف على خزانة

الدولة بمبلغ ثلاثمـــــائة الف جنيه ، فتناول دارتانيان الورقة ثم التفت الى مونك وقال :

ـ لقد خرجت بصفقة المغبون ، ولولا أن اتهم بالبخل والجلافة لما فارقت سيفك ابدا يا دوق !

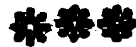
فعاد الملك الى الضحك وربت كتفه قائلا :

ـ تعال لمقابلتى قبل سفرك ، فساكون فى حاجة الى جرعة اخرى من السرور الذى سافتقده كثيرا بعد فراقك .

ـ مولاى ! . لا تحسبن ان المرح والسرور شانهما شان سيف الدوق ، فانى سامنح جلالتكم منهما ما تشاء بالمجان !

فقال الملك للكونت : « وانت يا كونت دى لافير ، تعـــال ايضـــا لمقابلتى ، فلدى رسالة هامة ســــاكلفك بحملها الى أخى ملك فرنسا » .

ثم شـــد على يد الدوق ، وطبع كل منهمـــا على يده قبلة ، ثم انصرفا !



وجد دارتانيان نفسه بعد أن عاد الى فرنسا يملك ثروة لم يكن يحلم بهـــا ابدا . وقد اهداه مونك قبل سفره بيتا ريفيـــا فى اسكتلنده ، تحيط به حديقة واســـعة جدا ، لتكون مقاما له فى أى وقت اراد النزول فى انجلترا .

وكان عند وصوله الى الشاطىء ، قد افترق عن آتوس وجريمو لحظة ليقابل أفراد جيشه الصغير الذين فارقهم فى هولندة بعد رحلة اختطاف الجنرال وامرهم بانتظاره فى كاليه ، فاعطى كل واحد منهم خمسين ريالا ذهبيا فوق بقيـــة أجره . ثم عاد فركب مع آتوس وجريمو الى باريس باقصى سرعة ، وحينما افترق الصـــديقان ، ليذهب آتوس الى فندقه ويذهب دارتانيان الى شريكه بلانشيه .

وكانت الساعة حول التاسعة مساء ، حين وصلت عربة تحمل صناديق وامتعة ، ونزل منها دارتانيان فكلف أحد صبيان المحل بحراسة العربة وامتعتها ثم دخل على بلانشيه الذى استقبله فى دهشة وفرح ليس لهما نظير . بيد ان دارتانيان تصنع الكآبة فراح بلانشيه يحاول التسرية عنه ، فلما راى دارتانيان ان بلانشيه لم يهتم بخسارة ماله اهتمامه به شخصيا وبسلامته ، استأذنه فى حمل امتعته الى الغرفة الداخلية ، ولما تم ذلك فرش ملاءة على

الارض وبدا يفتح الاكياس ويفرغ ما فيها من الذهب ، فكاد يطير صواب بلانشيه وراح يمزق الاكياس بالسكين ليستعجل تفريغها ، ثم غلبه شعوره فضحك وبكى ثم اغمى عليه ، فافرغ دارتانيان على وجهه قنينة من النبيذ الابيض حتى اذا ما افاق ، قال له :

ــ اعلم ان نصيبك هو مائة الف جنيه . ولى ضعفها كما اتفقنا ، لانني مساهم معك بالنصف فى المال ، مضافا الى ذلك مجهودى الخاص .

ــ يااللنعم الجزيلة ياسيدى !

ــ الحق انني كنت فى طريق العودة استكثر عليك هذا المبلغ ، ولكنى بعد ان امتحنت اخلاصك لشخصي عند دخولي صرت لا استكثره عليك ، وساعطيك جانبا من نصيبي لتستغله في التجارة ، واشترى بما بقى عقارات فى باريس وأرضا فى الريف ، وأجعل لنفسي بيتا لائقا وثيابا مناسبة !

وكان القدر يخبىء لدارتانيان مفاجاة اخرى ، اذ كانت الرسالة التى حملها آتوس من ملك انجلترا الى ملك فرنسا تنطوى على تقرير من ملك انجلترا عن الاعمال العظيمة النبيلة التى قام بها دارتانيان ، وكيف رفض منصبا رفيعا فى انجلترا بوعده لملك فرنسا الا يخدم بعده ملكا سواه ! فكانت نتيجة هذا التقرير ان استدعاه الملك وعينه قائدا لحرس الفرسان برتبة كابتن ، وزاده تقريبا ،وضاعف مرتبه ومعاشه عندما تسلم سلطته الملكية كاملة ولا سيما بعد وفاة الوزير العجوز الكردينال مازاران !

وهكذا هبطت أخيرا الثروة وجاه المنصب على الفارس الباسل ، ولكن لم يكن القدر بمثل هذا الكرم مع آتوس ، اذ اصيب وحيده الفيكونت دى براجيلون « راءول » بنازلة حطمت سعادته ، فقد احب خطيبته الآنسة لويز دى لافاليير ابنة ملك اسبانيا منذ اللحظة التى شاهدها فيها فى قصر الدوق أورليان بمدينة بلوا ، وعمل بعد ذلك على استمالتها بكل وسيلة ، حتى استطاع أخيرا ان يجعلها تحبه كما أحبها . فكان ذلك شديد الوقع جدا على الكونت دى براجيلون الذى كان يعشقها منذ الطفولة ، فتأثرت صحته تأثيرا عظيما ، ولا سيما بعد أن أرسل الملك وحيده راءول فى مهمة سياسية الى انجلترا . لكى يخلو له وجه الفتاة الحسناء !

مؤامرة رهيبة

كان المكان الذى خلا بوفاة مازاران قد شغله وزير مالية الملك « فوكيه » وقد سبب هذا نزاعا شديدا بين فوكيه وبين وكيله كولبير .

وكان اراميس ، او الشيفالييه « ديربلاى » ، من اشد انصار فوكيه بعد أن سعى هذا فى تعيينه اسقفا لمدينة « فان » الغنية . وقد تمكن اراميس من استدراج بورتوس الى معسكر فوكيه ، فوكل اليه فوكيه تحصين « الجزيرة الجميلة » وهى جزيرة فى مقاطعة بريطانيا ، مثل صخرة جبل طارق مناعة وموقعا ولها منذ العصور الوسطى حقوق اقطاعية تكفل لها استقلالا ذاتيا ...

اما آتوس ، السكونت دى لافير ، فلاذ بضيعته قرب « بلوا » ، لا يشارك فى شىء من الشئون العامة ، وانما كل همه فى تتبع احوال ابنه راءول ، مشغول القلب بسوء احواله وتعلقه بحب فاشل جر عليه البوار .

وقد توصل اراميس فى هذه الفترة الى ان اختير قائدا عاما لجيش الجزويت السرى ، وهو منصب خطير يجعل له نفوذا كبيرا جدا .

وقد خطرت لاراميس خطة يستطيع بها انقاذ فوكيه من غضب الملك ، لما يستطيع بها الوصول الى اغراضه ومطامعه الشخصية ، وبدا هذه الخطة ببث عيونه من الرهبان والاعوان السريين فى الباستيل ، لتسقط ما يطويه من الاسرار .. فعلم أن به سجينا اسمه « مارشيالى » ، هو شقيق توام للويس الرابع عشر ، اعتقل هناك لسبب يتعلق بمصلحة الدولة العليا ، تلافيا للتنافس على العرش .

وعلم اراميس كذلك ان امرا سيصدر باطلاق سراح سجين اسمه « سيلدون » ، وأن هذا الامر سيسلم الى السيد دى بيزمو حاكم الباستيل فى موعد معين من مساء يوم ما ، فعمل اراميس ، او الشيفالييه « ديربلاى » ، على أن يدعوه صديقه دى بيزمو الى العشاء معه فى الباستيل فى تلك الليلة .

وكان دى بيزمو جالسا الى المائدة وأمامه ضيفه أسقف فان ، وقد تمنطق الاسقف بسيفه ولبس حذاء طويلا ، فراح دى بيزمو يداعبه ويذكره بالايام التى كان فيها من فرسان الحرس ، وكان العشاء فاخرا دسما ، والنبيذ جيدا معتقا . وكان الجو حارا فابدى الاسقف تأففه من شدة الحرارة ، وتعجبه من اغلاق النوافذ ، فقال دى بيزمو :

ـ انى اغلق النوافذ اثناء العشاء دائما حتى لا تصل الى أصوات الواردات وضجة الرسل الذين يحملون البريد .

ـ لكنى اكاد أختنق ، فافتح النافذة فورا .

وفتحت النافذة ، ثم عاد دى بيزمو الى نبيذه يعب منه ، فلم ينتبه الى اصغاء اراميس للاصوات الصادرة من الفناء الكبير .

وفى نحو الساعة الثامنة ، وقد فتحت الزجاجة الخامسة من النبيذ ، وصل رسول فأحدث ضجة كبيرة بوصوله ، بيد ان بيزمو لم يسمع هذه الضجة لكثرة ما افرط فى الشرب ، فقال اراميس : « عليه اللعنة ! » .

فتساءل بيزمو : « هل النبيذ لم يعجبك ؟ » .

ـ كلا ! وانما هو حصان يثير من الضجة فى الفناء اكثر مما تثيره سرية كاملة من الفرسان !

ـ لاشك انه رسول قادم عليه اللعنة فعلا .

ـ لا تتقيد بى يادى بيزمو . فانظر عملك لانه قد يكون عاجلا .

وفى هذه اللحظة دخل الحاجب معلنـــا وصول رسول حاملا امرا ملكيا . فأمر بيزمو باحضار الرسالة التى تحمل ذلك الامر ، وجاءه الحاجب بالرسالة ففضها وقراها بسرعة فى حين كان اراميس يتظاهر بالشرب حتى يراقب مضيفه من خلال كاسه . ولم يلبث بيزمو ان قال له :

ـ الم اقل لك ؟ . انه امر تافه كالمعتاد لا يستحق هذه العجلة فى الليل ، وكان من الممكن تأجيله حتى الصباح !

ـ وماذا فى هذا الامر ؟

ـ انه امر باطلاق سراح سجين ، وهـذا طبعا موضـوع لم يكن يستحق أن يزعجنا عن شرابنا وطعامنا !

ـ بل هو يا عزيزى بيزمو موضوع مهم جدا لدى صاحب الشأن فمن حقه أن تسعفه بالتنفيذ ؟

ـ افى هذه الساعة من الليل !

ـ انها الرحمة والبر !

ـ رحمة وبر بهذا المخلوق ، ولكنه ازعاج لى انا ! ..

ـ هل هو شخص ذو حيثية .

ـ بالعكس .. ومع هذا خذ وانظر بنفسك .

ـ مكتوب فى أعلى الخطاب كلمة عاجل كما ترى .

ـ نعم يا سيدى الاسقف ، رجل تركوه فى السجن عشر سنوات ، ثم يستعجلون الان اطـــلاقه فى الليل ، ولا يريدون الانتظـــار حتى الصباح !

ثم القى بيزمو الرسالة أو الامر الملـــكى على المائدة فى احتقـــار ، والتفت الى الباب من خلفه ليجذب حبل الجرس فيدعو الحاجب ، وهنا انتهز أراميس الفرصة واستبدل بذلك الامر الملـــكى امرا آخر مشابها له فى كل شىء . ولما دخل الحاجب فرانسوا ، قال له [illegible] بيزمو :

ـ ناد المامور ، وليحضر معه المفاتيح !

وخرج فرانسوا لينفذ هذا الامر ، بينما صاح بيزمو قائلا : لكن هذا مستحيل ! . كيف اطلق سراح سجين فى مثل هذه الساعة من الليل بينما هو لا يعرف باريس ، وكاننى اطلق اعمى فى مدينة غريبة بغير مرشد ؟!

ـ لا عليك من هذا ، فمعى عربتى ، واستطيع ان احمله فيها الى حيث يريد .

وفى هذه اللحظة دخل الضابط مامور السجن فقال له بيزمو :

ـ أرجو أن تطلق سراح الســجين الســـيد سيلدن فصاح أراميس بسذاجة متناهية : « سيلدن ؟ . هل قلت سيلدن ؟ » .

ـ طبعا قلت سيلدن ، فهـــذا هو اسم السجين المطلوب اطلاق سراحه !

ـ اظنك تريد ان تقول مارشيالى ؟

ـ مارشيالى ؟ . كلا . بل سيلدن !

ـ أظن انك مخطىء يا سيد بيزمو !

ـ لقد قرات الامر .
ـ وانا كذلك !
ـ لقد رايت اسم سيلدن بحروف كبيرة في طول اصبعي هذه !
ـ وانا قرات اسم مارشيالي بحروف كبيرة في حجم قبضة يدي !
ـ لنحسم هذا الامر، فهذه هي الورقة على المائدة ، اقراها نيافتك.
ـ ها انذا اقرا مارشيالي .

فنظر بيزمو في الورقة وقال : « اجل المكتوب هنا مارشيالي ! .. ولكن هذا عجيب فقد قرات منذ لحظة في مكانه اسم سيلدن ، وكان تحت الاسم بقعة حبر .

ـ انا اضمن لك ان الامر صحيح .

ثم بسط امامه يده ، وأراه الخاتم الذي يحمله ، والذى يدل على انه قائد عام طائفة الازويت ، وهو امامهم المحجوب لجماعتهم السرية، فارتاع دي بيزمو وقبل الخاتم ، ثم قال : وماذا أصنع الان يامولاى ؟».

ـ وماذا تصنع في العادة كي تطلق سراح سجين ؟ .
ـ لدي لذلك لائحة .
ـ اذن نفذ اللائحة !

واطاع بيزمو ، وبعد نصف ساعة كان باب الغرفة يفتح ، فاطفأ اراميس معظم الشموع واختفى في ركن مظلم ليرى السجين يدخل ويتلو عليه بيزمو أمر الافراج ، ويحذره من افشاء اى معلومات عما رآه داخل السجن أو سمعه مدة اقامته به . فاقسم السجين على ذلك ، ثم ساله :

ـ اين تريد ان تذهب ؟

فبدت عليه الحيرة . وحينئذ برز من الظلام اراميس وقال :

ـ اني تحت أمر السيد كي أوصله الى اى مكان !

فاحمر وجه السجين الشاب ، ثم تأبط ذراع اراميس بغير تردد وقال :

ـ فلتحرسك عناية الله !

واصعد أراميس ضيفه الى عربته ، ثم ركب الى جانبه وامر السائق بالسير ، فانطلق ينهب بالعربة أرض الفناء ، ثم اجتازت باب السجن

الكبير ، وعندئذ تنفس اراميس الصعداء كمن تخلص من كابوس يجثم على صدره !

واتجهت العربة الى مكان خال من العمران ، ثم وقفت عند طرف غابة ، فقال السجين الشاب مارشيالى : « ماذا جرى ؟ » .

ـ يجب ان نقف هنا قليلا يا مولاى لنتحدث حديثا لا يسمعه أحد ، وينبغى ان يعيه سموكم الملكى تمام الوعى !

وقال السجين الشاب ، او صاحب السمو الملكى : « قل ما تشاء يا سيدى » فاستهل اراميس كلامه قائلا :

ـ انى وان كنت مخلوقا ضعيفا ، الا انه ما من مرة اجتمعت فيها بانسان ولم انفذ الى اعماق سريرته من وراء ذلك الحجاب الحى الذى نجعله على قريحتنا وقاء لها من الافتضاح . ولكننى فى هذه الليلة لا اجد نفسي مستطيعا ان اقرا ما فى نفسك لما يكتنفنا من الظلام . ومع هذا فانى استحلفك ان تعى كل حرف اقوله لك فى هذه الظروف الخطيرة التى جمعتنا ، فانت تعلم يا مولاى تاريخ الحكومة التى تحكم اليوم فرنسا ، فقد خرج الملك الحالي من طفولة حبيسة كطفولتك ، مغمورة منزوية كطفولتك ، مع فارق واحد : انك كنت فى اسار السجن وقيد الزنزانة أما هو فكان يعانى الآلام والاذلال والضيق علانية وجهرا ، فى حين ان منصبه الملكى يجعل خزيه ابلق وعاره مشهرا مفضوحا . فلا عجب ان يضيق صدر الملك بالحقد ، وان يعقد النية على انتقام لا يعرف له حدا من تعقل او تدبر او عدل . وانى لاعلم انك ربما عجبت لامرى فاعلم اننى اداة الله التى سخرها وشحذها وشرعها لاقامة حكمه واقرار ارادته . فتحت سلطانى قوم يكتنفهم الغموض ، شعارهم الداب والصبر . فانا مثلك ملك ولكن على امة من الفقراء . الذين يقومون بخدماتهم لوجه الله . ولما كان لله امر فى خروجك من الظلمات الى النور ، ومن السجن الى العرش ، فقد نفر هذا الجيش السرى الذى باع لله نفسه فانتزعك من اغلالك ، وان الله قد يمنحك قامة الملك ، وملامح وجهه ، وصوته ، فغدا او بعد غد ستجلس فى مكان لويس الرابع عشر على عرش فرنسا ، بعد ان تكون ارادة الله متمثلة فى ذراع رجل من البشر قد اورث بذلك الملك الى غير رجعة فتضعه فى الباستيل حيث كنت انت هذه السنوات الطوال !

ـ فهمت ، فأنتم لا تريدون سفك دم اخي ، وانما قصارى الامر أن تذيقوه من الكأس التى سقانى منها . ولكن خبرنى يا سيدى من الذى يعرف سر ولادتي عداك ؟

ـ الملكة الوالدة والدوقة دى شيفريز .

ـ وماذا ستصنعان ؟

ـ لا شيء ، فكيف سيعرفان من أنت اذا انت عرفت كيف تسلك معهما السلوك الذى لا يجعلهما يعرفانك ؟

ـ هذا حق ، ولكن هناك مصاعب أمتن من هذه .

ـ ما هى يا مولاى ؟

ـ ان اخي متزوج ، وليس فى مقدورى أن آخذ زوجة اخى !

ـ ساحمل اسبانيا على قبول الطلاق !

ـ ولكن الملك المخلوع سيتكلم !

ـ الى من تريده ان يتكلم ؟ الى الجدران ؟ ثم لا تنس أن صدمة الخلع المفاجيء والسجن والنسيان ستودى به فلا يعيش طويلا !

ـ انى افضل ان انفيه خارج البلاد ، فهذا اقرب الى الانسانية !

ـ ان ارادة جلالة الملك هى التى ستحسم هذا الامر !

ـ بقى بعد ذلك ان ننظر اذا كانت هناك مخاطر تحف بعملنا هذا ؟!

ـ اجل هناك خور القلب وضعف العزيمة والتردد . فاذا اغفلنا هذه العقبة لم يبق فى النجاح شك !

ـ اذن دعنى اتمشى وحدى قليلا فى هذه الغابة ، واتطلع الى النجوم التى ترصع فى السماء ، لعل الله فى هذه الدقائق العشر من الخلوة يلهمنى من أمرى رشدا !

ـ ذلك لك يا مولاى !

وراح الامير الشاب يتمشى ، لا يصله بالارض الا انه يطؤها بقدميه ، اما روحه فقد تعلقت بأسباب السماء ، تستفتح أبوابها ، وتسألها بصيصا من الالهام فى ذلك الديجور الذى يتقرر فى طوايا مستقبله ، اما الى الحياة واما الى الموت !

وكان اراميس فى اثناء ذلك ينظر الى الامير فيليب الشقيق التوام للملك لويس الرابع عشر فى توجس واشفاق ، واخيرا طأطأ الامير فيليب راسه ، فكأنما كان ذلك ايذانا بهبوط مسرح تفكيره من السماء الى أرض الناس . وظهر فى عينيه بريق الطمع ، فكأنما كان هناك شيطان مريد يراوده عن نفســـــه ويخيره بين الرضوان وبين الملك العضود . والسلطان الذى لا ينبغى لاحد فى زمانه :

واستبشر اراميس بذلك البريق فى عينى الامير الشاب ، ووجد فى ذلك آية على نجاح مسعاه ، وميل الامير الى ابرام الصفقة . ثم قال الامير فجأة : « هيا بنا الى حيث يقوم عرش فرنسا ! » .

ـ أهذا هو قرارك الاخير يا مولاى ؟

ـ نعم . هذا هو قرارى الاخير ، والان وقد وافقت على الاتفاق ، احب ان اعرف الشروط التى تفرضها فى مقابل هذا الصنيع ؟ فمما لا شك فيه عندى انك لست خاليا من الغرض فى هذا الامر الخطير . فافتح لى سريرتك ولا تخش شيئا !

ـ ان جلالتكم ستجلسون على العرش غدا مســاء . واحسب ان جلالتكم قــد تسلمتم فى السجن كراسة التعليمـــات . وفى هــذه الكراسة ارشادات تعرف سموكم بالاشــخاص الذين سيتألف منهم بلاطكم :

ـ لقد قرات كل هذه المذكرات التى كانت فى الكراسة ، وقرأتها بعناية ، حتى انى حفظتها عن ظهر قلب !

ـ هل وعيت كل مافيها ؟ . لا تؤاخذنى فى هذا السؤال ، فلابد لى من القائه على شخص قضى حياته فى الباستيل . وهل عرفت مثلا افراد اسرتك واوصافهم وامراضهم وامزجتهم ؟

ـ لقد عرفت هذا كله !

ـ واخوك الاصغر ؟

ـ انك ارفقت بهذه المذكرات صورا تخطيطية تجعلنى اعرف كل واحد متى وقع نظرى عليه ، ولكنى احب ان اقول لنيافتكم ، ان ملكا جاهلا مثلى بكل شىء سيحتاج الى وزير مخلص محنك !

ـ لا شك ان جلالتكم ستحتاجون الى صديق .

ـ وليس لى الا صديق واحد هو انت .

ـ بل سيكون لك أصدقاء كثيرون متى احاطت براسك هالة المجد والسلطان .

ـ بل ستكون انت وزيرى الاول !

ـ لا تتعجل يا مولاى هذا الامر ، حتى لا تثور حولى الشكوك !

ـ ولماذا ؟ ان ريشيليوكان كبير وزراء جدتى مارى ميديتشى ، ولم يكن قبل ذلك الا اسقف ليسون ، كما انك اسقف فان .

ـ ان عبارتك هذه يا مولاى تدلنى دلالة قاطعة على انك قد درست المذكرات التى ارسلتها اليك درسا دقيقا مثمرا .

ـ ان ريشيليو قد وصل بمساعدة الملكة وحمايتها الى مقام الكردينال .

ـ انى افضل يا مولاى الا تنصبنى رئيسا للوزراء الا بعد ان تتمكن من تعيينى كردينالا .

ـ اعدك بأن تغدو كردينالا فى أقل من شهرين ، فهذا امر يسير جدا ، ومن حقك أن تطلب فوقه ما تشاء ، ولا يكون ذلك الا دون حقك !

ـ اذن التمس من مولاى شيئا فوق هذا .

ـ ما هو ؟

ـ ان السيد فوكيه وزير المالية قد كبرت سنه ، وهو رجل يحب اللهو والاستمتاع بأطايب الحياة ، ومن رايى ان تقوم بسداد ما على فوكيه من ديون ، بحيث يغدو فى بحبوبة من العيش ، ثم تحيله الى الاستيداع بلباقة ، كى أحل محله وأسهر على مصالح جلالتكم ومصالحى . فان عيب ريشيليو فى نظرى انه اكتفى بحكم فرنسا ، فجعل فى فرنسا ملكين : لويس الثالث عشر وهو ، مع انه كان فى استطاعته أن يجلس على عرش مستقل عن عرش فرنسا . فأنا أفضل كثيرا ان استقل بعرش خاص ، لانه اذا لم يستطع كردينال رئيس لوزراء فرنسا أن يصل الى كرسى البابوية وعرش بطرس الرسول ، فمن ذا غيره يستطيع ذلك ؟!

— يعجبنى طموحك ، وهذه يدى اعاهدك على أن نعمل معا لتحقيق غاياتنا المشتركة .

وعاد الرجلان الى العربة ، فأسرعت تنهب بهما الارض فى طريقها المرسوم الى بلدة « فو » مقر قصر فوكيه ، وكان قد أقام فيه مهرجانا رائعا جدا ، احتفالا بنزول الملك ضيفا عليه فيه !

وكان اراميس قد احتفظ لنفسه بالغرفة التى تعلو غرفة الملك . فادخل فيليب فى هذه الغرفة ، ثم راح من خلال ثقب فى السقف يرقب لويس الرابع عشر . وسمعه يامر دارتانيان باعتقال فوكيه والتحفظ عليه ، لانه اجترأ على كتابة رسالة غزل الى لويز دى لافاليير ، وقد استطاع كولبير الاستيلاء على هذا الخطاب فوضعه بين يدى الملك .

وما ان خرج دارتانيان لتنفيذ الامر ، حتى اتكفأ الملك على سريره بملابسه ودفن وجهه فى الوسادة وهو ينتفض غيظا وغضبا !



لقد استبد الحنق بالملك بعد ان قرأ خطاب فوكيه الى لويز دى لافاليير ، وأسلمه الغضب الى تعب اليم ، بعد ربع ساعة من الحركات الهستيرية ، ثم أسلمه ذلك الى يأس واعياء فسقطت ذراعاه الى جانبه ، وانكفأ على وجهه ساكن الحراك الا من زفرة عميقة تخرج من صدره بين الحين والحين !

وحسب جلالته انه غفا واسلمه النعاس الى وادى الاحلام ، ذلك لان التاج الذهبى الذى تجتمع اليه أستار الفراش العلوية أخذ يبتعد عن ناظريه ، كما بدا الفراش وكأنه يغوص به فى باطن الارض ، وفى الوقت نفسه راحت اضواء الغرفة تتلاشى أمام عينيه لتسلمه الى ظلمة شديدة ، بدلت جدران الحجرة المغطاة بالمخمل المزركش بالذهب جدرانا رمادية قاتمة !

ولم يستغرق ذلك كله اكثر من دقيقة واحدة ، وان كان قد خيل للملك انه دام قرنا كاملا . ثم هب على وجه الملك هواء بارد ، واستقر به الفراش ، فى مكان لم يعد يرى فيه انوار حجرته الا كمن يرى من فى البئر ضوء النهار ، فقال فى نفسه :

— هذا كابوس من تأثير النوم بعد هزة عنيفة فى الاعصاب !

وينبغى التخلص من هذا الكابوس بمحاولة النهوض ما وسعنى ذلك !

غير انه ما كاد ينتهى من هذا الخاطر حتى تبين انه لم يكن نائما طول هذا الوقت ! والقى نظرة على ما حوله ، فراى عن يمينه وعن يساره رجلين مسلحين وقد اتشح كل منهما بمعطف واسع فضفاض، وغطى وجهه بقناع ، وكان احدهمـا يمسك فى يده مصباحا صغيرا ، فظن لويس انه لا يزال تحت سلطان الكابوس ، فحرك ذراعيه ثم قفز من السرير فوجد تحت قدميه ارضا رخوة رطبة ، فوجه الكلام الى حامل المصباح قائلا :

ـ ما هذا ايها السيد ؟ وما علة هذا المزاح السخيف ؟!

فاجابه الرجل بصوت جاف :

ـ ليس هذا مزاحا ، وانما هو الجد كل الجد !

ـ وهل انتما من رجال السيد فوكيه ؟

ـ لا يعنيك من نكون ، فيكفى ان تعلم اننا سيداك ، وانك فى قبضة يدنا ، وهذا كل ما ينبغى ان تعلم ، والان اتبعنا !

فصاح الملك باعلى صوته وقد تملكه الهياج بمقدار ما بدا على آسريه من برود وفتور ورباطة جاش :

ـ لن ابرح هذا المكان ، ولن اتزحزح من موضعى !

فاجابه الرجل الاخر وكان متين البنيان مفتول العضل :

ـ اذا انت تمردت ايها الصديق الشاب ، فانى مضطر ان احملك حملا ، فالفك فى عباءة لفـــا ، واذا اختنقت ، فانت الخـــاسر لا نحن !

ـ يبدو اننى وقعت فى يد سفاحين !

وسار معهما فى دهليز طويل متعرج ، ثم انتهى ذلك الدهليز الى دهليز آخر فى آخره باب من الحديد ، فتولى الرجل الـذى يحمل المصباح فتح ذلك الباب بمفاتيح كانت معلقة فى منطقته .

فلما فتح ذلك الباب دخل الهواء محملا باريج الازهار الذى يفيض منها فى امسيات الصيف الحارة ، فوقف لويس لحظة مترددا ، بيد ان الحارس الفظ الذى كان يسير خلفه دفعه من ظهره دفعا ، فالتفت نحوه لويس وقال :

ـ انى اسالك مرة اخرى ماذا تريد ان تصنع بملك فرنسا ؟

فاجابه الرجل الذى يحمل المصباح : « اجتهد أن تنسى هـذه الـكلمة ! » .

اما الرجل الاخر العملاق فانه قال له وهو يتناول من رفيقه المصباح فيطفؤه بفمه : « كان ينبغى ان تقتل شر قتلة من اجل هذه الكلمة التى اطلقتها على نفسك الان ، ولكن الملك للأسف شديد الرحمة ! » .

ـ ولكن الى اين نحن ذاهبون ؟

فامسك محدثه يده وقاده فى الظلام الى عربة مقفلة فتح بابها وقال له : « اصعد ! » . فأطاع الملك وجلس فى العربة ، ثم صعد احد الرجلين الى مقعد السـائق ، وركب الى جواره الرجل الاخر العملاق ، ثم اغلقت ابواب العربة بالمزلاج ، وانطلقت بعد ذلك تنهب الارض فى طريق باريس ، فلما بلغت غابة سينار ، غيرت جيادها ، واستأنفت المسير فدخلت باريس في نحو الساعة الثالثة فجرا ، من طريق سانت انطوان ، ثم اتجهت الى بوابة الباستيل الكبرى التى فتحت لها بعد ان صاح السائق باعلى صـوته فى الجنود القائمين بالحراسة : « بامر الملك ! » .

ووقفت الجياد فى الفنـاء الداخلى امام الدرج المفضى الى مكتب حاكم السجن ، وقد راح الزبد يغطى اشـداقها ، فأسرع حارس السلم اليها ، فصاح السائق فيه بصوت كالرعد القاصف : « ايقظ الحاكم فورا ! » .

وظل كل شىء ساكنا فى داخل العربة المغلقة المبطنة بالقطن لكتم الاصوات التى قد تحدث داخلها . وبعد عشر دقائق ظهر دى بيزمو فى عباءة النوم على عتبة الباب ، وسأل بصوت متضعضع : « ماذا ايضا ؟ من احضرتم الان ؟ » .

ففتح السائق باب العربة وهمس فى اذن العملاق ، فتناول هذا بندقية ووجهها الى صدر السجين قائلا له : « اذا تفوهت بحرف صرعتك فورا ؟ » .

ثم صعد الرجل الاخر الدرج الى حيث كان دى بيزمو واقفا ، فما رآه الحاكم حتى صاح فى دهشة شديدة : « السيد ديربلاى ؟! » .

فوضع اراميس اصبعه على فمه وقال له : « هيا ندخل مكتبك ! »

ـ يا الهى ! ماذا جاء بك فى هذه الساعة ؟

ـ جاءت بي غلطة ، فيظهر انك كنت في تلك الليلة محقا في رأيك !
ـ اي راي ؟ . وفي اي موضوع ؟!
ـ موضوع ذلك الافراج الذي تم .
ـ لم افهم بعد يا سيدي ، بل اقصد يا صاحب النيافة ، فاشرح لي الموضوع !
ـ الموضوع غاية في البساطة .. فانت تذكر ولا شك انه وصل اليك في حضوري امر بالافراج عن شخص .
ـ لقد ظننا فعلا ان المطلوب الافراج عنه مارشيالي .
ـ طبعا . ولكن الا تذكر يا صاحب النيافة انني كنت متشككا ، وان نيافتكم اجبرتموني على الافراج عن ذلك الشخص برغم هذه الشكوك ؟
ـ الواقع يا عزيزي بيزمو انها كانت غلطة ، وقد تبين ذلك الخطأ عند الرجوع الى الوزارة ، وهكذا جئتك الان بأمر ملكي بالافراج عن شخص ايرلندي اسمه سيلدن !
ـ اهو سيلدن بالتاكيد في هذه المرة ؟
ـ طبعا خذ اقرأ بنفسك فهذا هو الامر .
ـ يا الهي . هذا هو الامر الذي رايته في تلك الليلة . وهذه بقعة الحبر تحت اسم سيلدن !
ـ لا ادري ان كان هو ام لا ، ولكن هذا هو الامر على كل حال ، فنفذه !
ـ ولكن ، الاخر اين هو ؟
ـ من الآخر ؟
ـ مارشيالي .
ـ لقد جئتك به في هذه العربة !
ـ ولكن هذا لا يكفيني . فيجب كي استرده ان ياتيني امر جديد !
ـ دعك من هذا الكلام يا عزيزي بيزمو ، ولا تتكلم كما يتكلم الاطفال اين الامر القاضي بالافراج عن مارشيالي ؟
فاسرع بيزمو الى خزانته واخرج منها الامر ، فتناوله ارامیس ومزقه بكل هدوء ثم قربه من المصباح حتى احترق ، فصرخ دی بیزمو مذعورا : « ماذا تصنع ؟ » .

ـ تعقل الموقف قليلا يا صديقى بيزمو ، وسترى انه بسيط غاية فى البساطة ، فانت لم تعد تملك الان امر الافراج عن مارشيالى .

ـ يا الهى لقد ضعت وخرب بيتى !

ـ كلا على الاطلاق ، ما دمت قد احضرت لك مارشيالى ، فكأنه لم يخرج من زنزانته اصلا . فماذا تريد ؟ اذهب الان واحكم عليه الاقفال !

ـ بكل تأكيد .

ـ واعطنى بدلا منه سيلدن ، وبذلك تتصحح الاوضـاع ، ويكون الحساب فى دفترك مضبوطا !

ـ ولكن بربك لماذا اعدت الى مارشيالى بعد ان اخذته ؟

ـ ساقول لك السر ، فاننى لا اخفى اسرارى على صديق مثلك وان كانت من اسرار السياسة العليا !

ثم قرب اراميس فمه من اذن بيزمو وقال هامسا :

ـ تعلم اى شبه شديد بين ذلك التعس و ... ؟

ـ نعم ، والملك . اعلم هذا نعم .

ـ لقد كان اول ما فعله هذا المعتوه بعد اطلاق سراحه ان راح يزعم ... انت تعرف طبعا ماذا راح يزعم .

ـ وكيف تريدنى يا صاحب النيافة ان اعلم ؟

ـ لقد راح يزعم انه ملك فرنسا . تصور !

ـ هذا التعس . هذا الشقى !

ـ وراح يرتدى ملابس كملابس الملك لاتقان الرواية .

ـ يا اله السماء !

ـ هذا هو السبب يا صديقى العزيز فى اننى اعدته اليك ، فهو مجنون ويصيح محدثا جميع الناس بزعمه الجنونى هذا !

ـ ماذا تصنع اذن ؟

ـ الامر غاية فى البساطة . لا تتركه يتصل باحد على الاطلاق . انت تعلم ان جلالة الملك عندما بلغت مسامعه السامية دعوى هـذا المعتوه ، ورأى نكران الجميل والجحود الذى قابل به عطف جلالته

السامى عليه اذ امر بالافراج عنه ، غضب جلالته غضبا شــــديدا . وصارت عقوبة الموت جزاء كل من يتركه يتصل بأى انسان ، فيما عداى انا والملك نفسه ، أسمعت ؟ انهـــا عقوبة الاعدام فورا وبغير محاكمة افهمت ؟

ـ طبعا فهمت وحق الشيطان !

ـ والان هيا لناخذ اسيرك .

ـ طبعا هيا يا سيدى .. اعنى يا صاحب الفخامة !

ثم جذب حبـلا ، فرن فى السجن صوت ناقوس كبير يدقـونه فى العادة كى يدخل كل موظف وجندى وسجين الى مكانه ، كيلا يروا سجينا يراد صون شخصيته حتى يدخل زنزانته . فلما تأكد دى بيزمو من اقفار الممرات ، اتجه الى العربة وفتح بابها ، فاذا بورتوس فى يده البندقية مسلطة على صدر لويس ، فصاح بيزمو مخاطبا الملك :

ـ اهذا هو انت ايها الملعون ؟

ثم انزله من العربة وقاده بمعاونة بورتوس الذى ظل محافظا على هدفه ، وعلى وجهه القناع ، ومعهم اراميس وقد اعاد القناع الى وجهه حتى لا يعرفه السجين ، فادخلوه حجرة فيليب القديمة التى قضى فيها عشر سنين !

ودخل الملك الزنزانة من غير ان ينبس ببنت شفة ، بيد انه كان ممتقع اللون جدا ، واغلق بيزمو الباب بنفسه بالمفتاح ، ثم عاد الى اراميس فقال له همسا :

ـ حقا ... ان هناك شبها بينه وبين الملك ، ولكن لا الى الحد الذى تعتقده نيافتكم !

ـ اتراك مثلا لا تخدع ولا تخلط بينهما !

ـ انا مستحيل طبعا !

ـ انت رجل همام يا عزيزى بيزمو . والان اطلق سراح سيلدن .

ـ لقد كدت انساه ! انسانيه هذا الملعون . سآمر باطلاق سراحه فورا ! ..

ـ لا عليك . فى وسعك أن تطلقه غدا أو بعد غد ، فان الامر ليس بذى بال !

وبعد قليل انطلق الملك ، وكأنه أفاق من غشية المفاجأة الاولى ، فراح يدق باب السجن الحديدى ويرغى ويزبد ويصرخ كالمجانين ، ولكن ما من سميع ولا مجيب ، لان الاوامر الصادرة الى الجميع أنه شخص مجنون ، وان عقوبة من يثبت عليه أنه سمع مزاعمه هى الموت ، فصار كل واحد يتصامم عن صياحه انه الملك ، وأنه سينتقم من هؤلاء الخونة المجرمين الذين سجنوه !

حارس ظريف

خرج دارتانيان من اجتماعه بالملك ، الذى طلب فيه منه أن يلقى القبض على فوكيه ، وهو لا يدرى راسه من قدميه ، بل لا يدرى أهو فى وعيه أم لا ! ..

لقد نزل لويس الرابع عشر ضيفا مكرما على وزيره الاول « فوكيه » بقصره فى بلدة « قمر » ... وكانت المادبة فاخرة جدا ، والنبيذ بها من اجود الانواع ، وقد شرب هو بغير حساب . لكنه لا يمكن أن يكون ثملا هيا له السكر تلك الوقائع التى هى اغرب من كل خيال ... واخذ يحدث نفسه وهو يغادر الجناح الملكى الذى نزل فيه لويس الرابع عشر من قصر فوكيه قائلا :

ـ ها انذا وقد القت بى المقادير فى مسرح هذه الحوادث الرهيبة الغريبة وسيذكر غدا فى التاريخ أن الغسقونى دارتانيان قد أخذ بتلابيب نيقولا فوكيه وزير مالية فرنسا . فان أوامر الملك يجب ان تكون نافذة ايا كانت . وانى لاعلم أن اى انسان يمكنه ان يقول باسم الملك لفوكيه : « سلم سيفك يا سيدى » ولكن ليس كل انسان بالذى يستطيع ان يتحفظ على فوكيه من غير ان يثير ضجة ، وهو فى عقر داره ، وفى بلدته بين آله وانصاره .. ولـكن ماذا افعل كى انتقل بفوكيه من الحظوة العظمى الى المهانة الذليلة ، فيرى « فو » وقد تبدل من قصر باذخ الى زنزانة سجن ، ويرى المباخر وقد تحولت من بين يديه الى قيود واغلال وادوات عذاب ؟!

ووجد دارتانيان نفسه قد انتزع بضع شعرات من شاربه بحركته العصبية فقد كان فوكيه ذا فضل عليه ، وكان يجامله ويكرمه ، فوجد دارتانيان نفسه فى مأزق حرج يتنازعه واجب الصداقة وواجب الولاء !

واخيرا قر قراره على راى . فاتجه الى جناح فوكيه مباشرة ، فاذا به قد فرغ من تحية السيدات ودخل غرفته الخاصة حيث اخذ

وصيفه الخاص يعينه على خلع ملابسه ، كى يخلد الى النوم بعد ما احرزه فى يومه ذاك من شرف عظيم وتوفيق باستضافة الملك تحت سقفه ضيافة لائقة مشرفة وفيما هو كذلك ظهر دارتانيان على عتبة الباب ، فصاح :

ـ هذا هو السيد دارتانيان .

ـ فى خدمتك يا سيدى .

ـ هل لك انتقاد على الحفلة ؟

ـ كلا على الاطلاق :

ـ هل تجد اى عقبة فى سبيل قيامك بالخدمة بباب الملك ؟

ـ كلا على الاطلاق !

ـ لعلك اذن لم تجد مثواك هنا لائقا ؟

ـ بل هو بديع !

ـ انى اشكرك اذن على هذا الاطراء الذى لا استحقه والذى جشمت نفسك الحضور بسببه !

ومعنى هذا الكلام ان الوزير يرغب فى انصراف دارتانيان الى المخدع المخصص له ، ولكن دارتانيان لم يبد عليه انه فهم ذلك ، فظل واقفا لحظة ثم قال للوزير : « هل ستنام الان ؟ » .

ـ أجل . هل تريد أن تبلغنى شيئا ؟

ـ لا .. يا سيدى . وهل تنام هنا ؟

ـ كما ترى !

ـ انك يا سيدى قد اقمت للملك احتفالا رائعا جدا !

ـ هل الملك مسرور ؟

ـ غاية السرور .

ـ وهل كلفك بتبليغى رضاه السامى ؟

ـ انه كان حريا لو أراد ان يختار لذلك رسولا أعلى منى مقاما ؟

ـ انك تبخس قدر نفسك يا سيد دارتانيان !

ـ وهل هذا سريرك ؟

ـ نعم ، ولكن لماذا هذا السؤال ؟ . ألست راضيا عن سريرك ؟

ـ كلا .. لست راضيا عنه !

فانتفض فوكيه وقال له : « يا سيد دارتانيان ، هاك حجرلى فخذها ! » .

ـ واحرمك منها يا مولاى ؟ هذا لا يكون ابدا !

ـ ما العمل اذن ؟

ـ تسمح لى أن اقتسمها معك .

فحدق فوكيه فى دارتانيان ، ثم ساله :

ـ آه . أخارج انت الان من عند الملك ؟

ـ اجل يا مولاى !

ـ ليكن اذن .. فانت هنا السيد .. فادخل يا سيدى !

ـ اؤكد لمولاى اننى لا اريد ان اضايقه !

والتفت فوكيه الى وصيفه وامره بمغادرة الغرفة فخرج ، ثم قال لدارتانيان :

ـ الديك ما تريد ان تقوله لى يا سيدى ؟ ان رجلا من طرازك لا يحضر فى هذه الساعة ليتحدث مع رجل مثلى بغير دافع ذى بال .

ـ لا تسألنى !

ـ بالعكس . فماذا تريد منى ؟

ـ لا شىء غير صحتك !

ـ اذن هيا بنا الى الحديقة .

ـ لا .. لا داعى الى ذلك ؟ فانت تعلم ان الرطوبة لا تناسبنا معا !

ـ اعترف اذن بانك تقبض على !

ـ كلا على الاطلاق !

ـ انت تحرسنى اذن ؟

ـ حراسة تشريف يا مولاى !

ـ تشريف ؟ . هذا موضوع آخر ! . يقبضون على اذن فى بيتى ؟!

ـ لا تقل هذا يا سيدى !

ـ بل على العكس سأصرخ به بأعلى صوتى !

ـ اذا صرخت سأرانى مضطرا الى الزامك الصمت !

ـ هذا والله اعجب العجب . اتغرض على القوة الغاشمة فى بيتى ؟

ـ لقد اخطأت فهمي .. انظر هذه رقعة شطرنج ، ويمكننا ان نتسلى لنقطع الوقت .

ـ يا سيد دارتانيان ، هل انا مغضوب على ؟

ـ كلا .. ولكن ..

ـ اهناك امر بالتحفظ على تحت رقابتك ؟

ـ لست افهم حرفا مما تقول ياسـيدى . واذا كنت تريدنى ان انسحب فانى اخرج فورا ..

ـ انك تكاد تسلمنى الى الجنـون بأساليبك هـذه . لقد كدت اسقط من شدة النعاس فأتيت وايقظتنى حتى فر النوم من عينى . ثم تقول انك مستعد للانصراف بعد ذلك ؟

ـ لن اغفر لنفسى ما سببته لك من ازعاج ، واذا كنت حريصا على ان أرضى عن نفسى ...

ـ ماذا اذن ؟

ـ عليك أن تنام فورا تحت سمعى وبصرى ، فيسرى عنى !

ـ لن انام حتى اعرف الحقيقة ، وما دمت تعاملنى معاملة الاطفال ولا تصارحنى ؛ فسآمر باعداد الخيل وارحل الى باريس فورا ؟ ..

ـ اذا كان الا‍ـ‍ ‍كذلك ، فالمسألة تحتاج الى موقف آخر !

ـ تعنى انك تقبض على ؟

ـ كلا ، ولكن اصحبك فقط حيث تذهب !

ـ كفى مناورة ، واجبنى بصراحة لماذا تعتقلنى ، وماذا فعلت ؟

ـ لا أدرى بالضبط ماذا فعلت ، ثم انى لا اعتقلك هذه الليلة ..

ـ هذه الليلة ؟! .. وغدا ؟

ـ نحن لسنا الآن غدا .. ومن ذا الذى يتنبأ بالغد ؟

ـ اذن أسرع يا كابتن ، ودعنى اتحدث الى السيد ديربلاى .

ـ هذا مستحيل للأسف ، فلدى أمر يمنعك من التحدث مع اى انسان .

ـ لقد نسيت شيئا كان يجب ان اذكره . وهو ان الذى يفقد سلطانه لا حق له فى طلب شىء من احد ممن خدمهم فيما مضى ، ومن

باب اولى من رجل مثلك يا سيد دارتانيان لم يطلب منى شيئا أبدا !

فاحمر وجه دارتانيان وقطب جبينه ، وقال :

ـ ارجو ان تعدنى بشرفك ، الا تخرج من هذه الحجرة ريثما اعود ، فانى ذاهب لاحضر لك السيد ديربلاى ، صديقى القديم ، وسأتركك وحدك فى حراسة كلمـة الشرف ، فأين حجرة السـيد ديربلاى ؟.. اهى الحجرة الزرقاء ؟

ـ نعم هى بعينها ، انك تنقذ حياتى يا صديقى !

وخرج دارتانيان ، فما أن غادر الغرفة واغلق الباب وراءه حتى اسرع فوكيه الى مفاتيحه وفتح بها أدراجا سرية فى الحجرة ، فبحث عن أوراق ، وتناول جملة خطابات وعقود ووثائق فمزقها واحرقها على وجه السرعة ، ثم تنفس الصعداء واسترخى فى مقعده كما تركه دارتانيان .

وحينما عاد دارتانيان ، وتلاقت نظراتهما، ادرك كل منهما انه يفهم صاحبه تمام الفهم ، وان خروج دارتانيان كان لكى يفسح له المجال لاعدام ما يهمه اعدامه من اوراقه الخاصة ، فحفظ له فى نفسه هذا الجميل ، وساله :

ـ اين السيد ديربلاى ؟

ـ عهدى به دائما يحب النزهات الليلية فى ضوء القمر ، ولعله الان يتنزه فى حديقة القصر ويتطارح الشـــعر مع رجال حاشيتك من الشعراء امثال لافونتين وموليير . فانى لم أجده فى حجرته .

فاكفهر وجه فوكيه ، وركبه اليأس ، لإنقطاع الخيط الاخير من خيوط الامل ، وقال : « اليس فى حجرته ؟ » .

ـ اذا كان فى حجرته ، فقد كانت اذن لديه أسباب قوية حملته على عدم الرد على ندائى وطرقى المتكرر !

فاطرق فوكيه مهموما لحظة طويلة ، ثم رفع وجهه الى دارتانيان وقال :

ـ اسمع يا سيد دارتانيان .. لولا ان الملك فى هـذا القصر ، لذهبت الى الكهف ومعى شمعة ، فأشـعلت النار فى صندوقين من الصواريخ هناك ، كانا معدين للألعاب النارية غدا ، فيستحيل القصر الى ركام ورماد ... ولكن رباه ! ماذا قلت ؟ وهل يحق لى ان احرق قصر « فو » ؟ وهل « فو » ملكى حتى احرقه ؟ لقد انفقت عليه

واشتريته ، ولكنه ليس ملكا لى ، بل ملك للمهندس النابغة التى شيده ، ولمهندس الحدائق الذى نسق بساتينه الفيحاء ، وللرسمين الاعلام الذين زينوه بكل رائع من تحف الفن الجميل والصور الحسان .. ولموليير الذى مثل فيه رواياتها ، ولافونتين الذى نظم فيه أساطير الجياد ..

ـ مولاى ! رحمة بنفسك ! ولعل مع الصبح فرجا بعد ضيق ، ويسرا بعد عسر .. واعلم انك انت ايضا ملك للخلود ، فقد رعيت الفنون ، وعمرت الربوع ، وخدمت الدولة ، وتالقت كالنجم الثاقب !

واطرق فوكيه لحظة ثم عاد يتساءل : « لكن أين ترى ذهب ديربلاى ؟ » .

ـ هل عدنا الى السؤال !

ـ لا اجد فى نفسى جراة على التوجه اليك برجاء البحث عنه مرة اخرى يا كابتن !

ـ لولا رجوتنى لما ذهبت ، فقد يعرف انني تركتك لحظة ، ثم ان اراميس صديقى ، وقد يتسبب له هذا الامر فى شبهة او نقمة ..

ـ سانتظر الى الصباح !

ـ هذا أفضل فعلا !

ـ وماذا نصنع فى الصباح ؟

ـ لا أدرى والله يا مولاى !

ـ تناس انك قائد حرس الفرسان . وانى وزير المالية ، وتعال نتحدث فى امورى حديثا وديا خاصا ، بعيدا عن الرسميات !

ـ أنا تحت امرك .

ـ قل لى اذن ماذا قال الملك عنى ؟

ـ لم يقل شيئا !

ـ اهذا هو حديث المباسطة ؟ . وماذا ترى فى موقفى ؟

ـ موقف عسير !

ـ وماذا ترى ؟

ـ أرى ان تسرى من نفسك ما استطعت ، فاذا لم تستطع ان تنام على الفراش ، فسأنام انا فى هذا المقعد . وأنا رجل عميق

النعاس ، لو دوى بجانبى مدفع ميدان ما أيقظنى .. ولكن شيئا واحدا يقيمنى من هذا النوم الثقيل ، وهو صوت فتح اى باب ، سريا كان أو علنيـــا ، خفيا كان او ظاهرا . فامش فى الحجرة ما شئت ، ولكن اوصيك الا تقترب من مزلاج الباب ، فانى حينئذ اهب من نومي مذعورا ، ولا يخفى عليك سوء تأثير هذا الازعاج فى اعصابى المرهفة !

ــ حقا يا سيد دارتانيان ، انت اظرف واذكى واكيس رجل عرفته فى حياتى . وانى آسف جدا لانه فاتنى ان اتعرف بك عن قرب قبل الان .. فان الرجال من طرازك جد قليل يا كابتن .

فصعد دارتانيان زفرة عميقة ولم يجب ، ثم غاص فى مقعده ، فى حين استلقى فوكيه فوق فراشه ، واعتمد راسه فوق ذراعه وراح فى تفكير عميق !

وظلت الشموع موقدة ، فى انتظار أول تباشير الصبح ، وكلاهما يستعجل طلوعه ، لـكى يخرجا من هذا الموقف وينجلى الامر .

ولم يعكر صفو الســـكون اى معكر ، فلم يحضر احـــد ، حتى ولا اراميس ، ولم تحدث فى البيت الكبير اى حركة ، فيما عـدا داوريات الحرس فى فناء القصر .. وكان الرمل الناعم يكتم اصواتها كتمانا يكاد يكون تاما .. فكانت دقات الساعة هى الصوت الوحيد الذى استمر طوال الليل لا ينقطع ، واندفاع المياه من النوافير ، لان هذين هما المثلان الابديان لسلطان الزمن الذى يمضى فى طريقه غير عابىء بالضجة أو السكون ، وبالتوافه التى تتكون منها حياة الانسان او منيته !

مصير الملك المزيف

هبط الامير فيليب من حجرة اراميس ، كما هبط شقيقه (١) التوام الملك من حجرته ، فقد ضغط اراميس على زر ، فالفى فيليب نفسه امام السرير الملكى الذى كان قد عاد الى موضعه من الحجرة بعد هبوطه بالملك الى ذلك الطابق الارضى (البدروم) الذى اخذ منه الى السجن . ووجد فيليب نفسه وحيدا امام ذلك الترف الباذخ ، فاخذته الرهبة مما صار بين يديه من السلطان ، ومن الدور الخطير الذى فرض عليه اداؤه ، فشعر بقيمته لاول مرة ، غير ان الرعدة سرت في جسده حين ابصر ذلك الفراش الوثير الذى كان لاخيه الملك منذ لحظة ، ولكنه تغلب على تلك المشاعر المتباينة ، واضطجع فى ذلك الفراش الملكى ، وحمل عضلاته على الاسترخاء فى ذلك الموضع الذى كان لا يزال دافئا من اثر رقاد لويس الرابع عشر ، ورفع الى جبينه منديله ليمسح به العرق ، وكان المنديل قد غدا من قبل مبللا بكثرة ما جفف به من عرقه المتصبب !

ولو ان احدا نظر الى عينيه فى ذلك الوقت لتصوره نمرا ضالا تنكب الطريق بين اشجار الغابة والمستنقعات فدخل عرين أسد غائب ورقد فيه !

كان فيليب يرهف سمعه ليتبين كل صوت ، وقد توترت اعصابه وصار فؤاده يخفق كلما توهم حركة من حفيف شجرة أو خفق جناح طائر . حتى لقد تمنى فى ذلك السكون الرهيب لو ان قارعة نزلت فخلصته بضجتها وزلزالها من ذلك الهدوء الذى ثقل على انفاسه ، فان من الصمت ما هو اشقى للانسان من قصف المدافع ، وان من

---

(١) فى هذا الفصل خلاصة لرواية المؤلف « القناع الحديدى » تناول حادث سجن الملك لويس الرابع عشر واقامة شقيقه فيليب .

السكون ما هو ادعى الى القلق وانفى للأمن من دوى العاصفة وهدير الانواء !

وحدق الى أعلى فابصر ذلك التاج الذهبى الذى تجتمع اليه أستار السرير وكلته ، فراح يتأمله كما يتأمل السارق مسروقاته ، وينتظر ماذا يكون عند انبلاج الصبح من أمره مع هذا التاج ، ومن أمر هذا التاج معه .

ولما أوشك النهار أن يطلع ، تسلل الى الغرفة الملكية شيء ادنى الى الاشباح منه الى الاجساد ، وكان فيليب ينتظر ذلك الداخل المتسلل ، فلم يعجب لدخوله ، وانما سأله :

ـ ماذا وراءك يا سيد أراميس ؟

ـ كل شيء على ما يرام يا مولاى .. قد انتهى الامر !

ـ وهل قاوم ؟

ـ مقاومة عنيفة ، وصل فيها الى حد البكاء والصراخ ؟ ثم استسلم اخيرا لمصيره المنكود !

ـ وهل ارتاب حاكم الباستيل فى شيء ؟

ـ كلا على الاطلاق !

ـ وذلك التشابه ؟

ـ هو علة النجاح !

ـ ولكن السجين لن يدع فرصة الا انتهزها لاعلان الحقيقة ؟

ـ لقد فكرت في كل احتمال ، واحتطت لكل شيء ، وبعد بضعة ايام ، وربما قبل ذلك ، سنخرجه من سجنه ونبعث به منفيا الى ركن بعيد عن العمران !

ـ ولكن المنفيين يستطيعون العودة يا سيد اراميس ؟

ـ سيكون منفاه بعيدا بحيث تستحيل عودته على قوى الانسان المادية ومدته فى الحياة الدنيا !

فالتقت نظرات الملك الجديد واراميس فى تواطؤ صامت ، ثم سأله فيليب :

ـ ودى فالون ؟

ـ سيقدم اليك اليوم ، وسيتقدم اليك سرا بالتهنئة على نجاتك من خطر ذلك المنافس المدعى !

ـ وماذا نصنع له ؟ . نعطيه براءة لقب دوق ، أليس كذلكَ ؟

فابتسم اراميس ابتسامة غامضة وقال :

ـ اجل براءة لقب دوق !

ـ ولماذا تبتسم ياسيد أراميس ؟

ـ انى ابتسم لبعد نظر جلالتكم !

ـ بعد نظرى ؟ وماذا تعنى بهذا ؟

ـ ان جلالتكم تخشون ولا شك ان يكون هذا المسكين شاهد عيان مزعج ، فتريدون الخلاص منه :

ـ الخلاص منه يجعله دوقا ؟

ـ طبعا . فان هذا سيقتله فرحا ، ويموت سره معه . ولكنى سافقد بفقده صديقا ليس له نظير !

وفى أثناء هذا الحديث ، سمع اراميس حركة فى خارج الحجرة جعله ينصت بانتباه . وقال فيليب : « ما هذا ؟ » .

ـ لقد طلع النهار يا مولاى ، ويبدو أن جلالتكم قبل رقادكم فى هذا الفراش أمس قررتم ان تصنعوا شيئا معينا هذا الصباح !

ـ لعلى قلت لقائد فرسانى دارتانيان اننى سانتظره :

ـ اذا كنتم قد قلتم ذلك ، فلا شك انه سيحضر الان ، لانه رجل كالساعة الدقاقة لا يقدم ولا يؤخر !

ـ انى أسمع وقع اقدام فى الردهة ، فلعه القادم . واذن لنبدا الهجوم !

ـ ان ابتداء الهجوم بالاشتباك مع دارتانيان حماقة خطيرة ، فهو رجل ثاقب النظر شديد الفطنة . ولهذا أفضل الا يكون أول الداخلين عليك :

وفى هذه اللحظة طرق الباب الخارجى طرقة واحدة ، وهى طريقة دارتانيان فى الاستئذان على الملك كل صباح . وفتح الباب ، فظن دارتانيان أن الملك هو الذى فتحه بنفسه ، ولم يكن ذلك مستبعدا فى نظره بعد الحالة الفظيعة من الاضطراب التى تركه فيها دارتانيان امس . غير انه بدلا من أن يرى وراء الباب وجه الملك الذى كان قد استعد لتحيته بكل اجلال واحترام ، رأى امامه وجه اراميس

المستطيل الجامد ، فكاد يصيح دهشة هاتفا باسم أراميس ؟ ولكن هذا ابتدره قائلا :

ـ صباح الخير يا عزيزى دارتانيان .

ـ انت هنا .

ـ ان جلالة الملك يرجو ان تعلن الان انه يستريح هذا الصباح فى فراشه بعد ليلة قضاها متعبا !

والواقع ان دارتانيان كان كمن به ذهول ، فهو لم يستطع ان يتصور كيف أصبح اسقف فان ، الذى كان حتى أمس لا حظوة له عند الملك ، بحيث يوجد فى غرفة نوم الملك فى الساعة السادسة صباحا ، وهذه مكانة سامية لم ينل مثلها ريشيليو العظيم لدى لويس الثالث عشر ! . ولكن هذا كله لم يزعزع ثبات أراميس الذى استطرد فقال لدارتانيان :

ـ ان جلالته يرجو ايضا يا عزيزى الكابتن الا تدخل عليه الا خاصة اهل بيته ، لانه فى مسيس الحاجة الى النوم !

فأراد دارتانيان أن يبدد بعض الشكوك التى ساورته لصمت الملك فقال لاراميس معترضا :

ـ لكننى على موعد مع جلالة الملك هذا الصباح ، والان .

فانبعث من اعماق صوت الملك مرعدا :

ـ اجل هذا الموضوع !

فلم يسع دارتانيان سوى أن ينحنى ، وان يبتلع ابتسامة اراميس الساخرة ، التى اردفها بقوله :

ـ فيما يختص بموضوع مقابلتك لجلالة الملك يا عزيزى دارتانيان، هاك امرا ملكيا يجب ان تنفذه فورا .. وهذا الامر يتعلق بالسيد فوكيه !

فتناول دارتانيان الامر وقرأه ثم قال بارتياح عظيم :

ـ امر افراج ؟ . آه .

فقد فسر له ذلك الامر الملكى سر وجود اراميس لدى الملك ، لان عفو الملك عن فوكيه جعله يقرب صديقه الحميم اراميس !

وأدى دارتانيان التحية ، وتراجع خطوتين استعدادا للخروج ، فقال الاسقف له : « انى ذاهب معك ! » .

ـ الى اين ؟
ـ الى السيد فوكيه ، لكى احمل اليه البشرى !
ـ لقد حيرتنى واربكتنى يا اراميس منذ لحظة !
ـ والان ، هل فهمت ؟
ـ كل الفهم !
ولكنه قال فى نفسه وهو يصرف على اسنانه :
ـ كلا وربى ! لم افهم شيئا .. ولكن سيان ، فالامر صريح .
ثم ؛ د دارتانيان أراميس الى حجرة فوكيه ، وكان هذا جالسا فيها ينتظر عودة دارتانيان وهو فى حالة من القلق لا مزيد عليها ، فلما ابصره داخلا عليه ومن ورائه اسقف فان اراميس بلغ منه الفرح مبلغا عظيما : غطى على قلقه كله . وهتف بدارتانيان قائلا :
ـ اراك جئتنى بسيد ديربلاى « اراميس » يا كابتن ؟
ـ وبشىء خير من ذلك ايضا يا مولاى !
ـ ماذا اذن ؟
ـ الحرية ! .. انك صرت حرا بامر ملكى !
ونظر فوكيه نحو اسقف فان « اراميس » كأنه يسأله بنظراته ، فقال دارتانيان :
ـ تستطيع يا مولاى ان تشكر نيافة اسقف فان ، فهو الذى كان له فضل تغيير راى الملك ، وانى لاعجب لاراميس كيف بلغ من مكانته ان يحمى السيد فوكيه ، ومع ذلك لم يغفل من اجلى شيئا !
فقال له اراميس : « بل افعل كل ما تتمنى يا صديقى ! » .
ـ اذن لا أسألك الا شيئا واحدا اذا اجبتنى اليه كنت قانعا مسرورا .. خبرنى كيف نلت هذه الحظوة الكبرى عند الملك ، انت الذى لم تكلمه الا مرتين فى حياتك ؟!
ـ انا لا اخفى شيئا على صديق عزيز مثلك .. انت تعتقد اننى لم ار الملك الا مرتين فى حياتى ، ولكن الواقع اننى رايته اكثر من مائة مرة ! . وكل ما هنالك اننا كنا نستخفى !

ثم التفت اراميس الى فوكيه الذى كان لا يقل دهشة من دارتانيان وقال :

ـ لقد كلفنى الملك ان ابلغك يا مولاى انه احرص على صداقتك من اى وقت مضى ، وان احتفالك كان جميلا باهرا يدل على شيمتك فى السخاء والولاء ، وانه قد تاثر بتلك المظاهر الى اقصى حد !

وادرك دارتانيان أن لدى هذين الصديقين ما يتناجيان به ، فحيى السيد فوكيه ، ثم اراميس وانصرف !

وكان صبر فوكيه قد نفذ ، فاسرع الى الباب واغلقه ثم عاد الى الاسقف وقال له :

ـ يا عزيزى ديربلاى ـ اعتقد انه قد آن الاوان كى تشرح لى حقيقة ما حدث ، فانى فى الواقع لم افهم شيئا !

فجلس ديربلاى ، واجلس فوكيه نبالته ، وقال له :

ـ سأشرح لك كل شيء . ولكن من اين ابدأ ؟

ـ ابدأ من هنا ، لماذا اطلق الملك سراحي ؟

ـ كان يجب اولا أن تسـألنى لماذا أعتقلك . والواقع أن سبب اعتقالك لم يكن تلك الوشاية وحدها التي همس بها فى اذنه كولبير ، بل ان القشة التى قسمت ظهر البعير كانت خطابا كتبته الى لافاليير .

ـ اذن لماذا غفل عنى برغم غيرته الطائشة ؟ وكيف يغار فيقبض على وبعد ساعات يكلفك بابلاغى هذه الرسالة الرقيقة ؟!

ـ انه لم يكلفنى بتبليغك اى رسالة !

ـ اراك تخفى شيئا . فبالله خبرنى ماذا قال لك الملك عنى ؟

ـ الملك لم يقل لى شيئا عنك او عن غيرك !

ـ انك تقتلنى بهذه المحاورة ! . خبرنى بحق صداقتنا هل لا ازال وزيرا ؟

ـ طبعا . وانت وزير ما رغبت فى الوزارة !

ولكن ما هذا السلطان الغريب الذى صار لك على ارادة الملك بين يوم وليلة بحيث تصرفه وتوجهه على هواك ؟! .. اننى استحلفك بما بيننا من عهد وصداقة ، وباعز ما لديك فى الحياة ، ان تخبرنى كيف استطعت الدخول عند لويس الرابع عشر ، فانا اعلم انه لم يكن يحبك !

ـ ولكن الملك سيحبنى منذ الان !

ـ هل تحدثت اليه فى شىء خاص بينك وبينه يخصه لك ؟

ـ أجل .. بينى وبينه سر !

ـ سر من شانه أن يغير نفسية الملك ؟

ـ انت بارع الذكاء يامولاى الوزير .. لقد صدق حدسك ، فلدى سر من شانه أن يغير عقلية ملك فرنسا واهدافه !

ـ وهذا السر ليس من حقى أن أعرفه طبعا ؟

ـ بل لا اخفيه عليك . فان الملكة الوالدة بدلا من أن تضع طفلا واحدا وضعت ذكرين توامين مرة واحدة !

فرفع فوكيه راسه فى دهشة وقال : « اعرف هذا ، واعرف ان الطفل الاخر مات فى المهد صبيا ! »

ـ سترى الان ماذا حدث له . فهذان التوامان كان ينبغى أن يصيرا فخر امهما وامل فرنسا ، ولكن ضعف الملك لويس الثالث‌عشر وتشاؤمه ، جعلاه يخشى منازعات موهومة بين ولدين متساويين فى جميع الحقوق ، فالغى احد التوامين الغاء تاما !

ـ اتقول الغاه ؟

ـ انتظر !. لقد عاش التوامان وكبرا ، كبر الاول حتى جلس على عرش فرنسا ، وانت وزيره ، اما الاخر فكبر فى الظل والعزلة الموحشة . وصرت انا صاحبه !

ـ ما هذا الذى تقول يا سيد اراميس ؟! وماذا يصنع هذا الامير الان ؟!

ـ لقد ربى فى مزرعة نائية فى جوف الريف ، ثم حبس فى زنزانة بتلك القلعة التى يطلقون عليها اسم الباستيل !

ـ اهذا ممكن ؟

ـ لقد كان أحد التوامين اوفر البشر حظا ، اما الاخر فاتعسهم واشقاهم !

ـ وهل تجهل امه مصيره ؟

ـ بل هى تعرف كل شىء !

ـ والملك ؟

ـ الملك لا يعرف شيئا !

ـ هذا افضل ! .. عفوا لقد قاطعتك ! .. ثم ماذا عن ذلك الامير ؟

ـ ان هذا الامير المسكين كان أشقى الناس . وقد شاءت ارادة الله الذى يوزع عنايته على مخلوقاته بالعمل ، أن يعين ذلك الامير المسكين .

ـ هل افهم من هذا انك تريد منى ان اشد أزرك لاصلاح ما وقع على الاخ المسكين من غبن ؟

ـ انا لم انتظر منك مساعدة فى هذا لاننى فعلته وحدى . فاذهب الان الى حجرة الملك ، وانى اتحداك أن تعرف بالنظر والكلام أن سجين الباستيل هو الراقد فى فراش اخيه !

ـ يرقد فى فراش الملك ؟ .. وأين الملك اذن ؟

ـ اى ملك ؟ . ذلك الذى يكرهك او هذا الذى يحبك :

ـ ألملك .. الذى كان بالامس ؟

ـ ملك الامس ؟ . اطمئن ! .. انه يحتل الان فى الباستيل ذلك المكان الذى شغله ضحيته من قبل .

ـ يا للسماء ! ومن الذى ذهب به الى هناك ؟

ـ انا الذى فعلت ذلك ؟ .. فعلته بطريقة بسيطة جدا لا تعقيد فيها على الاطلاق .. فقد احتفظته فى أثناء هذه الليلة ، وبينما كان يهبط الى الظلام ، كان التوام الاخر يصعد الى النور ، ولا أعتقد أن هذه المهمة نجمت عنها اى ضجة ، فانها كانت برقا بغير رعد . ومثل ذلك البرق لا يوقظ النيام !

فندت عن الوزير صيحة مكتومة ، كمن أصابته ضربة لا يدرك مصدرها ثم وضع راسه بين كفيه وغمغم : « انت فعلتها ؟ » .

ـ بكل حذق ومهارة .. فماذا ترى ؟

ـ هل عزلت الملك حقا وسجنته ؟ .. وهل تم هذا هنا فى « فو » فى بيتى ؟

ـ نعم يا سيدى ، حدث كل هذا بين منتصف الليل امس والساعة الاولى صباح اليوم !

فبدرت عن فوكيه حركة كأنه يهم بالوثوب على أراميس ، لكنه

غالب نفسه ، بينما استطرد ارامیس فقال : « ان بيتك هذا كان كولبير يوشك ان ينتزعه منك ! »

ـ لكنه بيتي ! .. فكيف تتم فيه جريمة كهذه ؟

ـ اى جريمة ؟

ـ هذه الجريمة المنكرة ! . هذه الجريمة التى هى اخس من القتل ، انها تلوث الى الابد اسمى ، وتصمنى أمام التاريخ بالعار الذى لا تمحوه السنون !

ـ حذار يا سيدى ! .. انك تهذى ، وتهذى بصوت مسموع !

ـ بل سأصرخ بكل قوتى ليسمعنى العالم اجمع ، لقد لوثت شرفى باقتراب هذه الخيانة ضد ضيفى الذى كان يرقد مطمئنا آمنا تحت سقفى . فسحقا لى وتعسا !

ـ بل سحقا له وتعسا ذلك الذى دبر وهو فى بيتك دمارك وخرابك ، واستصفاء أموالك والقضاء على شخصك ! . نسيت هذا ؟

ـ لقد كان ضيفى ، وكان ملكى !

فنهض أراميس وقد نضحت عيناه بالدماء وتقبضت شفتاه وقال :

ـ هل انت مخبول يا رجل ؟

ـ بل رجل شريف !

ـ انت مجنون !

ـ بل رجل يمنعك من اتمام جريمتك النكراء ، بل رجل يفضل الموت ويفضل قتلك على تركك تلوث شرفه وتمرغه فى الاوحال !

ووثب فوكيه الى سيفه الذى كان دارتانيان قد وضعه على فراشه، والتمع الفولاذ الصقيل فى يده فقطب اراميس حاجبيه ودس يده فى صدره كمن يبحث عن سلاحه . فلم تفت هذه الحركة فوكيه ، فألقى سيفه بعيداً واقترب من اراميس فمس كتفه بيده وقال له :

ـ سيدى ! هين على أن أموت هنا الان كيلا اعيش بعد ما حدث من الخيانة والعار تحت سقف بيتي .. فاذا كنت تضمر لى مودة فاستحلفك ان تقتلنى فى غير تردد !

ولبث اراميس ساكنا جامدا لا يتحرك ، ثم بدا فى عينيه وميض الامل فقال فى توسل لفوكيه :

ـ تمهل يا مولاى وتبصر فى كل ما ينتظرنا ! . ان ما فعلناه ليس الا العدل والملك لايزال حيا ، بيد ان سجنه لا يوفر لك الحياة !

ـ انا اعلم انك فعلت ما فعلت حرصا على مصلحتى ، ولكنى لا استطيع قبول هذه الخدمة . ولا اريد كذلك ان اهدر حياتك ، فاخرج من هذا البيت . فانى كما تعلم مضياف لكل انسان ، ولهذا لن أضحى بك فى سبيل ذلك الرجل الذى دبرت امر هلاكه من اجلي !

ـ ولكنك انت ستكون ولا محالة من الهالكين . فمن كانت له اخلاقك لايمكن الا ان يكون ضحية لشراهة الملوك وجحودهم وتنكرهم لذوى المعروف والنجدة ومن لهم عليهم اياد بيضاء !

ـ قد تكون محقا ، ولكنى اقبل هذا المصير عن طيب خاطر ، لانه خير عندى الف مرة مما تريده لى من الخديعة والخيانة ، فارحل من هنا فورا ، وغادر فرنسا كلها ، وانى امنحك اربع ساعات للخروج من متناول يد الملك !

فزار اراميس كزئير الاسد الجريح وقال له : « اربع ساعات ؟ » .

ـ هذا اكثر مما ينبغى لك كى تغادر فرنسا وتلحق بالجزيرة الجميلة ، حصنى الحصين الجاثم بين الامواج ، فقد وهبتك اياه ليكون ملاذا لك . فالجزيرة الجميلة ستكون لك منى ، كما أن « فو » من الملك لى . فانت هنا كضيفى لا اسمح له ان يمسك فيها بسوء . كما انه هو هنا ضيفى لا اسمح لك ان تمسه بسوء . فاذهب يا ديربلاى ، واعلم انه لن تمس شعرة من رأسك ما دمت حيا !

فابتسم اراميس ساخرا وقال :

ـ شكرا جزيلا !

ـ ارحل ، وأعطنى يدك كى نعدو معا ، انت لنجاتك ، وانا لنجاة شرفى !

فاخرج اراميس يده من حيث كان قد وضعها فى صدره فاذا بها حمراء مضرجة بالدم ، لفرط ما نهش صدره بأظافره غيظا وقهرا ، لانه حمل فى ذلك الصدر من الآمال الجسام ما ينوء بتحقيقه البشر !

فلما رای فوكيه ذلك ارتاع ، واخــذته الشــفقة ، ففتح ذراعيه لارامس . ثم اسرع كلاهما يهبطان السلم السرى الذى يؤدى الى الفناء الخارجى . وامر فوكيه باعداد خير جياده . اما اراميس فوقف اسفل الســـلم الذى يؤدى الى حجرة بورتوس ، فى حين مضت عربة فوكيه تنهب الريح ، وقال اراميس لنفســه :

ــ هل ارحل وحدى ؟ . هل اخبر الامير ؟ وبعد ان اخبره ماذا ترانى صانعا ؟ هل اهرب به فيكون على الدوام دليل اتهام لاصق بجبينى ؟ . ام تراها تكون فاتحة حرب اهلية لا يعلم نتيجتها ومداها الا الله ؟ . ثم ماذا يستطيع الامير ؟ لقد كان محكوما عليه ، وهو على اســوأ الفروض سيعود سيرته الاولى ، ولكن واها لى انا المسكين !. ماذا اصنع ؟ هل اذهب الى الجزيرة وكيف اترك بورتوس هنا ليتكلم ويفضح كل شيء ؟ . انه سيعانى من ذلك ولا شك . وانا لا اريده ان يتعذب . فليرحل اذن معى ، وليرتبط مصيره بمصيرى ، وليكن بعد ذلك ما يكون !

واسرع اراميس يصعد السلم دون ان يراه احد : وكان بورتوس بعد عودته من الرحلة الى باريس قد استغرق فى نوم عميق ، فدخل اراميس متسللا ووضع يده المضطربة على كتف العملاق وجعل يهزه ويناديه . ففتح بورتوس عينيه ، فقال له :

ــ هيا بنا ! . قم فالبس ثيابك . . اننا راحلان الان !

واطاع العملاق ، وساعده اراميس على ارتداء ثيابه ، وحشا له جيبه بذهبه وجواهره .

وفى هذه اللحظة اطل دارتانيان من الباب براسه وسألهما : « ماذا تصنعان هنا ؟ » .

ــ اننا راحلان فى مهمة عاجلة !

ــ رافقتكما السلامة !

وهبط الصـــديقان فركبا جوادين قويين وانطلقا يســابقا الريح ودارتانيان يلوح لهما بيده !

مضت عربة فوكيه تنهب به الطريق حتى لكأن العجلات لا تمس الارض فلما وصل الى الباستيل طلب ايقاظ الحاكم ، معلنا عن شخصيته ، وبعد جهد جهيد صدق الحاكم أن الوزير هو الذى حضر الى السجن فى هذه الساعة المبكرة جدا من الصباح ، ثم طلب فوكيه منه أن يذهب به الى مارشيالى ، فقال الحاكم :

ـ بكل سرور يا مولاى الوزير .. ولكن اين الامر بذلك ؟

ـ اى امر ؟

ـ امر الملك !

ـ هات ورقة اكتب لك امرا .

ـ هذا لا يكفى ! . لابد من امر الملك نفسه !

ـ انا آمرك باخراجه حالا !

ـ وانا لا أستطيع الا بامر من جلالة الملك !

ـ اننى اعدك بشرفى اذا سمحت لى بدخول زنزانة مارشيالى أن اسلمك بعد دقيقة واحدة الامر الملكى الذى تريده !

ـ اريد الامر الملكى اولا ، والا فلا دخول عند مارشيالى !

ـ اذا لم تطعنى فورا فانى اقبض عليك وجميع ضباطك !

ـ وانا اكرر عليك يا سيدى انى لا اطيع الا الاوامر الملكية .

ـ ان معنى هذا ، انى سأخرج من هنا بغير ان اقابل مارشيالى .

ـ طبعا .

ـ اذا حدث هذا فانى سأعود بعد ساعة على راس عشر آلاف جندى وثلاثين مدفعا من مدافع الحصار !

ـ أرى أن مولانا الوزير قد جن !

ـ انى امنحك عشر دقائق للتفكير !

ـ لن يتغير رايى ، فانى حريص على ان يبقى راسى بين كتفى !

فلما راى فوكيه اصراره ، تناول ورقة وقلما وكتب امرا الى الدوق بويون والامير كونديه ان يسيرا بكل من فى باريس من الجنود والمدافع لمحاصرة الباستيل .

وعندئذ اذعن بيزمو حاكم الباستيل فجعل فوكيه يدفعه أمامه وهما يجريان بين الردهات والزنازين ، فسمع فوكيه صراخا عاليا :

ـ الموت لفوكيه ! ادركوني ! . انا الملك ! . انقذوني من الملعون فوكيه !

فقال بيزمو للوزير : « هذا هو صاحبك مارشيالى الذى تريد مقابلته ! » .

ـ اسرع ودع الثرثرة .. اين مفتاحك ؟

واختطف من يده المفتاح وفتح الزنزانة ، وجثا أمام الملك الذى كان يرغى ويزبد ، وبعد لأى استطاع فوكيه أن يتفاهم معه ويبلغه ان المؤامرة حدثت بغير علمه ، وانه خف لدى سماعه بها الى أداء واجب الامانة والولاء !

فسرى عن الملك قليلا ، وانهض وزيره وقبله ، وهو يعلن عزمه على معاقبة الخونة عقابا لم يسبق له مثيل ! فقال فوكيه :

ـ أستميح مولاى ان اذكر له ان كل اثارة لهذا الموضوع أمام المحاكم او بأى وسيلة اخرى سيكون معناها اثارة فضيحة ليس لها نظير فى تاريخ الملوك . كما يجب يا مولاى الا يصبح اسم الملكة الوالدة آن النمسوية مضغة فى أفواه الناس وامثولة للاخلال بأقدس واجبات الامومة !

ـ ولكن العدل يجب ان يأخذ مجراه يا سيدى !

ـ ولكن يا مولاى لا يجوز ان يراق دم ملكى على حد المقصلة !

ـ دم ملكى ؟ . اتصدق هذه المزاعم التى لا اساس لها الا فى مخيلة اراميس ؟ . ان هذا الزعم جريمة يجب أن يعاقب عليها !

ـ وعقوبتها الموت ؟

ـ أجل الموت يا سيدى !

فقال فوكيه فى حزم :

ـ مولاى ، تستطيع ان تقطع رقبة فيليب دى فرانس شقيقك التوام ان اردت ، فذلك شانك ، بعد أن تستشير فى ذلك الامر والدتك الملكة آن ، لان الامر يخصها قبل ان يخصك . وليس لى فيه شخصيا أدنى تدخل . ولكنى اطلب من مولاى معروفا واحدا !

ـ تكلم واطلب ما تريد !

ـ أطلب العفو عن أراميس ، وبورتوس !

ـ عن متمردين قاتلين ؟! . أفهم انهما صديقاك ، ولكن أمن الدولة وسلامتها فوق كل اعتبار يا سيدى !

ـ لا مناص من تذكير مولاى بأننى أطلقت سراحه وأنقذت حياته ؟

ـ سيدى !

ـ ولا مناص أيضا من ان أقول لمولاى ان ديربلاى « أراميس » لو كان يريد قتله لقتله فى هذه الليلة ، ولم يعلم بالحقيقة أحد ، لانه كان يستطيع ان يدفن الجثـــة فى غابة سنيار ، ويسدل بذلك الستار الاخير على المأساة كلها !

ـ لقد عفوت عن صاحبيك ، على أن يبقيا فى قلعتك بالجزيرة الجميلة .. والان هيا بنا نمر أولا باللوفر ، لابدل ثيابى ، وبعد ذلك نذهب معا الى « فو » .. !

ـ ارجو من مولاى أولا أن يمضى هـذا الامر الملـكى بالافراج عن مارشيالى !

فتناول الملك ذلك الامر وكتب عليه « يعتمد ، لويس » .

وخرج الملك برفقـــة فوكيه فركب العــــربة ، ودى بيزمو حاكم الباستيل يجذب شعر راسه ولا يصدق عينيه !



امر فيليب بادخال خاصة اهله عليه فى وقت « اليقظة الصغرى » كما يسمونها فى تشريفات البلاط لذلك الحين . وقـد اصدر ذلك الامر بالرغم من افتقاده اراميس الذى لم يعد اليه مع انه ينتظره . ولم يكن الملك المزيف يعرف ما حدث ، لكنه قدر ان غيبة اراميس قد تطول ، فأراد ان يجرب قدرته على التصرف وحظه فى حياته الجديدة بعيدا عن كل تأثير وكل حماية . وعلى هذا فتح باب غرفته على مصراعيه ، فدخل جملة اشـــخاص فى صمت وسكون . ولم يتحرك هو لدخولهم لان وصفاءه كانوا منهمكين فى الباسه ثيابه لذلك الصباح كما هى العادة . وكان فيليب قد راقب من ثغرة فى السقف

حركات اخيه طيلة اليوم السابق ، ودرسها دراسة جيدة ، بحيث صار يؤديها اداء لا يثير اى شك !

وكان لباسه فى ذلك اليوم هو لباس الصيد ، وفى ذلك الزى استقبل زواره من آله الاقربين . وقد اسعفته ذاكرته والمذكرة التى زوده بها ارامیس خلسة فى المدة الاخيرة من سجنه ، فعرف ان التى دخلت اولا فى المقدمة هى والدته آن النمسوية ، معتمدة على ذراع شقيقه الصغير ، ثم شقيقته معتمدة على ذراع الدوق دى سان اينيان، فابتسم لتلك الوجوه ، وان كانت قد سرت فى جسده رعدة عندما عرف سحنة والدته !

وكان أشد ما يخشاه من هذه الزيارات ، زيارة الملكة . فان الزوجة اقرب الى معرفة زوجها ، وبينها وبينه ما لا يكون بين سائر الناس ! .. وكانت أعصابه لا تحتمل امتحانا عسيرا كذلك الامتحان . فشعر بارتياح عظيم لانها لم تحضر ذلك الصباح !

وشرعت الملكة آن الوالدة تلقى محاضرة سياسية بارعة عن الاستقبال الباهر الذى اعده فوكيه فى قصره للعائلة المالكة ، وراحت فى خطبتها هذه تمزج العسل بالعلقم ، وتدس السم فى الدسم .

وسكت فيليب لحظة ، ثم راح يبين للملكة الوالدة ان فوكيه مظلوم ، وان مساعده كولبير يكيد له غيرة وحسدا ، مثنيا على مزايا فوكيه وعبقريته ، فعادت الملكة الوالدة الى الهجوم مبينة له أن فوكيه له عيب واحد هو اسرافه الشديد الذى تخشى منه على خزانة الدولة ، فابتسم فيليب وقال لها :

ـ سنضع نظاما يكفل لنا انتفاع الدولة بمواهب السيد فوكيه ، ويقيها ذلك الذى تخشين منه !

وحينئذ قالت الاميرة هنرييت شقيقته ، وقد رأته يتطلع الى الباب :

ـ ماذا يترقب صاحب الجلالة ؟

والواقع انها قصدت بهذا السؤال ان تغمزه ، لانها ظنت انه يتطلع الى حضور لويز دى لافيير ، أو ينتظر وصول رسالة منها ، وقد ادرك فيليب مرادها بما ركب فى طبعه من فطنة ، فى ضوء ما قراه ودرسه من احوال اخيه ، فقال لها فى جد :

– انى انتظر ايتها الاخت رجلا ممتازا غاية الامتياز ، ومن اكفأ المستشارين اهل الفضل والذكاء . وكنت أحب ان اقدمه اليكم جميعا ، وان ازكيه لديكم .

وفى هذه اللحظة ظهر فى عتبة الباب قائد الحرس ، فصاح فيليب :

– ادخل يا دارتانيان .

– ماذا يريد مولاى ؟

– اين السيد أسقف فان صديقك ؟

فارتج على دارتانيان ، لانه ودع ارأميس وبورتوس بنفسه منذ ساعة ، وقد قالا له انهما ذاهبان فى مهمة سرية بأمر من الملك . فقال :

– ولكن ، يا مولاى ...

– انى انتظره ، ولكنه لم يحضر ، فابحثوا عنه واحضروه !

فلبث دارتانيان مشدوها ، وفكر بسرعة فهداه تفكيره الى ان الملك ربما قصد بهذا الكلام التعمية وستر المهمة السرية التى بعث فيها ارأميس ، فقال للملك :

– هل يريد مولاى استقدام السيد أراميس بأى شكل من الاشكال، فنبحث عنه ونحضره فورا ؟

– لست اريده بوجه الاستعجال ، بل أريد فقط ان تنبهوه الى الحضور اذا وجدتموه مصادفة واتفاقا :

فقال دارتانيان فى نفسه : « لقد صدق اذن حدسى ! » .

ثم قال فيليب : « اخبروا السيد فوكيه أيضا اننى اريد التحدث اليه ! » .

فهم من فى القاعة بمغادرتها ، بيد أن الملك « فيليب » اردف قائلا :

– لا تنصرفوا ، سأكلمه فى حضوركم !

ومضى الحديث بعد ذلك هينا ، وقد اطمأن فيليب ما دام قد اجتاز هذه المرحلة بامان ، ولكن مضى الوقت لم يفد فى حل الاشكال القائم بغياب ارأميس . وفتر الحديث لنضوب الموضوعات المأمونة . وكان قد نسى أن يصرف أخا واخته هنرييت ، فبدا عليهما شىء من الدهشة ونفاد الصبر ، فمالت الملكة آن النمسوية على ولدها ووجهت اليه بضع كلمات باللغة الاسبانية !

وكان فيليب يجهل هذه اللغة تمام الجهل ، فاكفهر لونه امام هذه العقبة غير المنتظرة ، وكأنما الهم حلا ، فوقف . بيد أن أمه قالت له :

ــ ماذا اذن ؟ اجب ؟

فالتفت فيليب نحو الباب المؤدى الى السلم السرى وقال :

ــ ما كل هذه الضجة التى أسمعها ؟

وكان قد سمع صوتا يصيح : « من هنا . من هنا يا مولاى ! » .

وقال دارتانيان الذى كان واقفا وراء الملكة الوالدة : « هذا صوت السيد فوكيه ! » .

فقال الملك : « السيد اراميس اذن غير بعيد من هنا ؟ » .

ولكنه ابصر امامه شخصا كان بعيدا عن ذهنه جدا أن يراه بهذا القرب ، فقد اتجهت جميع العيون نحو الباب انتظارا لدخول السيد فوكيه ، ولكن فوكيه لم يكن هو الذى دخل !

وانبعثت من جميع اركان الغرفة صيحة فزع ، اطلقتها شفاه الملك وجميع الحاضرين بغير استثناء !

وانه لا يتاح لسائر الناس ، مهما حفلت حياتهم بالغرائب والخوارق ، أن يبصروا مشهدا كذلك الذى كان مسرحه غرفة الملك فى هذه اللحظة !

كانت النوافذ مغلقة نصف اغلاق ، لا تسمح بدخول النور الا بصيصا تقوم فى وجهه ستائر ضخمة من المخمل مبطنة بالحرير السميك . ومع ذلك فان العيون كانت تحدق فى دهشة شديدة حتى لا يفوتها شيء مما ترى من منظر عجب !

ذلك لان الذى ظهر على عتبة الباب السرى كان هو لويس الرابع عشر شاحب الوجه مقطب الجبين . وكان فوكيه من ورائه يبدو بوجه عابس منقبض الاسارير !

اما الملكة الوالدة ، فما وقع بصرها على لويس الرابع عشر ، وكانت ممسكة بيد فيليب ، حتى اطلقت صرخة فزع كمن تراءى له شبح !

واما شقيق الملك ففغر فاه وراح يقلب وجهه بين الملكين المتقابلين ، وهو لا يدرى أيصدق عينيه ام يكذبهما !

واما هنرييت فانها ظنت أنها ترى الملك وصورته فى مرآة ،

فكلاهما كان شاحب الوجه ، مرتعد الفرائص ، مقطب الاسارير . يتراشقان النظرات النارية فى صمت لا تعكره الا انفاسهما اللاهثة !

وكان التشابه تاما الى آخر حد ، فى الوجه والحركات والقامة . بل إن القدر شاء أيضا ان يختار الملك حين بدل ملابسه فى قصر اللوفر حلة من المخمل البنفسجى اللون ، كتلك التى كان يرتديها فيليب !

وتسبب ذلك التشابه الكامل فى زيادة ارتباك الملكة الوالدة « آن » النمسوية وبلبلة فكرها ، فهى لم تستطع بعد ان تدرك الحقيقة ، لان الحقيقة لم تخطر لها ببال لشدة فظاعتها !

ولم يكن لويس يقدر أن تصادفه هذه العقبات ، بل كان ينتظر أن مجرد دخوله سيؤدى الى معرفته وافتضاح الحيلة . ولا سيما انه كان يعتقد انه مثل الشمس لا تخفى ، فلم تحتمل اعصابه أن تكون شخصيته موضع شك امام اى انسان كائنا من كان ، ولم يتصور كيف لا تخبو كل شعلة وينكشف نورها حينما يشرق نور محياه ! .
وعلى هذا كان ذعره هو نفسه عند رؤيته فيليب اشد من ذعر جميع الحاضرين ، كما راعه منه سكونه وثباته ، ذلك السكون الذى يشبه كثيرا الصمت الذى يسبق العاصفة !

ولكن من ذلك يستطيع أن يصور بغتة فوكيه ودهشته الهائلة حين وجد نفسه امام هذه الصورة الحية لمولاه ! . لقد كان أول خاطر خطر له ان اراميس كان على حق . فالذى امامه الان ملك حقا وصدقا بمقتضى نسبه ومولده ، وهو فى هذا لا يقل حقا فى العرش عن الملك الاخر ، وان ذلك الانقلاب الجرىء كانت مكفولة له جميع عناصر النجاح !

والواقع أن فوكيه قد أحس انه انما يضحى بعض دم لويس الثالث عشر فى سبيل بعض دمه الاخر ، وربما كان ذلك الذى يضحى به خيرا وابقى . فهذا التوام الذى كان سجينا لا يبدو مصابا بالكبر والغدر والطموح !

على ان الحاضرين لم يشعروا بشىء من كل هذه الخواطر التى كانت تصطرع فى صدر فوكيه . فقد كان دارتانيان مثلا واقفا وظهره الى الحائط فى مواجهة فوكيه ، وقد وضع قبضة يده فوق جبهته ، وتسمرت نظراته امامه وهو لا يفهم شيئا مما يرى ، فقد طرحت

البغتة غشاء كثيفا فوق ذهنه ، حتى لكأن الاشخاص الذين يشتركون فى ذلك المشهد يسبحون فى بحر كثيف من الضباب .

واستمر ذلك الصمت دقائق كانت كأنها اجيال طويلة ، وفجأة تحرك لويس الرابع عشر ، لانه كان اقل الاثنين صبرا ، واكثرهما تعودا للامر والتصرف فأسرع الى النافذة وفتحها ممزقا الستائر ، فدخل طوفان من النور الشديد ملأ الغرفة ، وجعل فيليب يتراجع الى قبة السرير ، فانتهز لويس هذا التراجع واستغله مخاطبا الملكة الوالدة :

ـ اماه .. الا تعرفين ولدك ! مادام كل واحد من الحاضرين لم يعرف ملكه ؟

فانتفضت آن النمسوية ورفعت ذراعيها الى السماء دون أن تنبس ببنت شفه !

فقال فيليب ايضا بصوت هادىء :

ـ اماه . الا تعرفين ولدك ؟

وفى هذه المرة كان لويس هو الذى تراجع .. اما آن النمسوية ففقدت توازنها ، وقد أصاب الندم فى راسها وفؤادها ، فزلزل تفكيرها وشعورها .

ولم يخف الى نجدتها حين سقطت ، لان الجميع كانوا من شدة الدهشة فى ذهول تام !

ولم يستطع لويس تحمل هذا التردد وهذه الاهانة ، فوثب على دارتانيان الذى كان الدوار قد بدأ يتغلب عليه ، فراح يترنح ، فصاح به الملك :

ـ الى يا قائد الفرسان ! انظر الى وجهينا بعينيك الثاقبتين واحكم بيننا ، أينا اشد امتقاعا ، هو ام انا ؟!

فنبهت هذه الصيحة دارتانيان ، وتحركت فيه بحكم العادة عروق الطاعة التى الفت أن تستجيب لمجرد سماع امر الملك ، فراح يهز راسه ، ثم اتجه بلا تردد الى فيليب ، فوضع يده فوق كتفه وقال :

ـ سيدى .. انت اسيرى !

فاقترب فيليب من آن النمسوية التى كانت قد سقطت فوق مقعد . وقال لها بصوت رقيق تختلج فيه العاطفة الجياشة :

ـ لو لم اكن ولدك لاستنزلت عليك اللعنة يا أماه ، لما كتبته على نفسي من الشقاء والالم .

وشعر دارتانيان برعدة تسرى فى اوصاله ، اقشعرت لهـا عظامه ، فحيى الامير الشاب باحترام واجلال ، ثم قال له :

ـ عفوك يا مولاى ! انني لست الا جنديا ، ويمين طاعتى ملك لذلك الذى غادر الغرفة الان !

ـ شكرا يا دارتانيان ! . ولكن ما خبر ديربلاى « أراميس » .

فقال صوت من خلفهما :

ـ ديربلاى فى أمان يا مولاى ، ولن تمس شعرة من رأسه مادمت حيا ! ..

فالتفت فيليب الى صاحب الصوت وقال له فى ابتسامة حزينة :

ـ السيد فوكيه ؟!

فركع فوكيه امامه وقال : « اغفر لى يا مولاى ، فان الذى خرج من هنا الان كان ضيفى ! » .

ـ انى لست آسفا على شىء الا حرمانى من معاشرة رجال صدق وشجاعة وولاء من طرازكما .. والان يا سيد دارتانيان ، تقدمنى فانى سائر وراك الى حيث تريد !

وفى هذه اللحظة دخل كولبير فسلم دارتانيان ورقة فيهـا أمر ملـكى ، ثم انسحب فى صمت . فلما قرأ دارتانيان الورقة كورها فى يده بغضب ، فقال الامير : « ماذا فيها ؟ » .

ـ اقرأ بنفسك يا مولاى .

فقرأ فيليب فى الورقة الكلمة الاتية بخط لويس الرابع عشر :

ـ على السيد دارتانيان ان يذهب بالسجين الى جزائر القديسة مارجريت وان يغطى وجهه بقناع حديدى ، بحيث لا يستطيع السجين رفعه عن وجهه ، والا قتل فى الحال !

فقال فيليب باستسلام واذعان وثبات :

ـ هذا عدل .. انى مستعد .. هيا ايها السيد دارتانيان !

وفى الوقت الذى كان دارتانيان يتاهب فيه لتنفيذ الامر الصادر اليه من لويس الرابع عشر ، كان أراميس وبورتوس يجدان السير نحو الجزيرة الجميلة وقد وقفا فى طريقهما لحظة لكى يؤديا تحية الوداع الى آتوس وراءول دى براجيلون . وقد وجدا ان راءول قد انهار لما تبين له من نكث لويز دى لافاليير بعهده ، واتصالها ذلك الاتصال الغرامى الشائن بالملك لويس الرابع عشر ، فقرر الانضمام الى تجريدة الدوق دى بوفور التي قرر شنها على آفريقيا الشمالية ، واختاره الدوق ليكون أركان حربه ، وكلفه أن يجهز الاسطول اللازم فى ميناء طولون ، ويزوده بجميع آلات الحرب .

وقد قرر آتوس أن يصحب ولده الى طولون ليكون فى صحبته ووداعه حتى يقلع ذلك الاسطول !

القائد الاسير

ذهب دارتانيان باسيره الى ليمان جزيرة القديسة مارجريت ، وقد حمل تعليمات سرية الى حاكم الليمان ، فوصل تحت جنح الليل ، ووضعوا على وجه السجين قناعا حديديا به ثقوب لدخول الهواء ، ورؤية الطريق ، وبه كذلك فتحة ذات غطاء متحرك أمام الفم ، كي يدخل منها الطعام والماء !

وكان الحاكم هو الذى يتولى مصاحبة السجين ذى القناع الحديدى الى النزهة ، والى البيعة ، فلا يسمح لاحد سواه بالتحدث اليه أو الاقتراب منه .

وقد حاول السجين أن يتصل بالعالم الخارجى ليرفع عن نفسه ذلك الحصار القاتل ، فتناول ذات مرة طبقه الذى يتناول فيه طعامه ، وهو مصنوع من الفضة ، فكتب فوقه بحرف السكين انه توام الملك ، ثم القاه من النافذة المرتفعة الى صيادين رآهم على الشاطىء . ولم ينقذ هؤلاء الصيادين من اطلاق الرصاص عليهم فورا الا تمتعهم بنعمة جهل القراءة والكتابة !

وبقى دارتانيان فى قلعة الليمان ، والالم يحز فى قلبه لمصير ذلك الامير التعس ، ثم خطر له أن الملك سيبقيه فى ذلك المنفى الى الابد ، تخلصا منه لانه يعرف السر . غير أنه استيقظ ذات يوم ليجد رسالة عاجلة حملها رسول خاص من باريس ، وكانت هذه الرسالة بخط لويس الرابع عشر نفسه ، وقد جاء فيها :

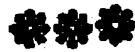
ـ اعتقد انك قد انتهيت من تنفيذ اوامرى ياسيد دارتانيان . فعد فورا الى باريس لمقابلتى فى قصر اللوفر !

فسر دارتانيان سرورا لا مزيد عليه لانتهاء مدة نفيه ، ولا سيما انه كان يكره مهنة السجان !

وكان الملك بعد نجاته من تلك المؤامرة الهائلة واطمئنانه الى مصير

توامه قد انقلب على فوكيه ، وقد افلس هذا أو كاد ، بينما استمر كولبير فى الدس له للقضاء عليه نهائيا !

وكان مجلس المقاطعات قد اجتمع فى (نانت) . وتوجه الملك ببلاطه ووزرائه الى تلك المدينة ، وهناك قرر الملك القبض على وزير ماليته فوكيه . وحاول دارتانيان أن يمهد لفوكيه سبيل النجاة ، غير أن الاوامر كانت مشددة ، والاحتياطات كانت عظيمة ، فاقتيد فوكيه من (نانت) الى قلعة (انجير) فى عربة ذات قضبان حديدية .



وكان الملك يتمشى فى الغرفة ظاهر القلق ، والساعة نحو الثانية بعد الظهر ، واخيرا نادى كولبير وساله :

ـ ماذا جرى لدارتانيان ، انه لم يعد الى الان من المهمة التى كان مفروضا انه مضى لتنفيذها !

وقال كولبير : « لست ادرى اين دارتانيان وماذا عوقه ! »

وفى هذه اللحظة بالذات سمع صوت أجش ، فتهلل الملك وصاح : « دارتانيان ! » . ورد هذا قائلا فى تأثر ملحوظ :

ـ مولاى !. هل جلالتكم الذين أصدرتهم الى حرس الفرسان هذه الاوامر بغير علمى ؟

ـ اى اوامر تعنى ؟

ـ الاوامر الخاصة ببيت السيد فوكيه ؟.

ـ لم أصدر اى أمر الى الفرسان !

فعض دارتانيان على شاربه وقال : « لم يخطىء ظنى .. انه هذا السيد ! » . وأشار الى كولبير ، فقال الملك :

ـ اى اوامر هذه التى صدرت ؟

ـ أوامر بقلب بيت فوكيه راسا على عقب ، وضرب خدمه واتباعه واهانتهم ، واغتصاب الادراج والخزائن . وتخريب كل ما وقع تحت يدهم !

فهتف كولبير وقد اكفهر لونه : « سيدى ! » . ولكن دارتانيان اسكته قائلا :

ـ بل اسمع انت ياسيدى !. ان الملك وحده ـ دون غيره ـ هو الذى يحق له ان يصدر الاوامر الى فرسانى ، اما انت فانى امنعك واحرم عليك ذلك ، واقولها لك صريحة امام جلالة الملك : ان السادة الذين يحملون السيف لا يسكتون على اقل من هذه الاهانة !

فهمس الملك : « دارتانيان ! دارتانيان ! » . ولكن هذا مضى فقال لكولبير :

ـ لقد وجهت اهانة شديدة الى فرسانى ، ولست قائد مرتزقة او قطاع طرق من حثالة الاوباش !

فصاح الملك فى حزم : « ماذا حدث اذن ؟ »

ـ حدث يامولاى ان هذا السيد الذى دس لرئيسه ، وصنع له قفصا من حديد ، امر فى غيابى ان يذهب فرسانى الى بيت الوزير المغضوب عليه ، ليضعوا ايديهم على جميع اوراقه ، ويحطموا كل الاثاث !

ـ ولكنك اهنت السيد كولبير امامى !

وقال كولبير : « لقد فعلت ماوجدته لمصلحة الملك ، وعسير على نفسى جدا ان اعامل هذه المعاملة من ضابط من ضباط جلالته ، ولكنى مضطر الى السكوت اجلالا لمولاى الملك ! »

فقال له دارتانيان : « امن مصلحة الملك ايها السيد ان تأخذ البرىء بجريرة المذنب ، فتقبض على قوم ابرياء ؟ » .

ـ ومن ادراك انهم ليسوا شركاء فوكيه فى ذنبه ؟

ـ بل من ادراك انت ان لفوكيه شركاء ، او انه مذنب اصلا ؟ ان الملك وحده هو الذى يملك الحكم على الناس !

ولما كان الملك يريد ان يعرف اخر انباء فوكيه وما حدث اثناء القاء القبض عليه ، وكان من جهة اخرى يرى ضرورة انصراف احد الرجلين حتى لاتتفاقم الحالة ، فقد امر دارتانيان ان يسرد عليه ماحدث له اثناء تنفيذ مهمته ، فاستاذن كولبير وانصرف . فلما صار دارتانيان مع الملك وحده قال له :

ـ مولاى .. انت ملك شاب . والفجر هو الاوان الذى يستطيع الانسان ان يتبين فيه هل سيكون اليوم مشرقا ام عبوسا قمطريرا .

فكيف يطمئن الناس يامولاى الى حكمك وهم يرون كيف يؤخذ الوزراء فى عهدك بالضغينة والعنف ؟.. ولكن لندع هذا يامولاى الان ، كى اقول لك اننى نفذت امر اعتقال فوكيه !

ــ لقد استغرق ذلك منك وقتا طويلا . واين فوكيه الان ؟

ــ انه يامولاى فى القفص الحديدى الذى اعده له كولبير ، وهو قفص على عجل تجره الجياد الى قلعة انجير .

ــ ولماذا تركته فى منتصف الطريق ؟

ــ ان مولاى لم يكلفنى ان اذهب معه الى (انجير) . بدليل ان مولاى كان يبحث عنى حين دخلت !. وهناك سبب اخر لعدم ذهابى معه . ذلك ان وجودى معه من شأنه الا يجعله يحاول الفرار . وجلالتكم تعلمون ان أحب شيء عندى ان اسمع ان السيد فوكيه قد استرد حريته بأى وسيلة . ولهذا سلمته لاخيب اومباشى فى الفرقة ، عسى أن يفيده ذلك فى النجاة !

ــ أانت مجنون ياسيد دارتانيان ؟

ــ اظن مولاى لاينتظر منى ان اكون عدوا للسيد فوكيه بعد كل الذى صنعه من اجل جلالتكم !. ولا انصح لجلالتكم باقامتى حارسا عليه اذا كنتم حريصين على بقائه فى المعتقل !

وبهت الملك ، وكاد يثور ، لولا انه تذكر ماضى دارتانيان الحافل بالولاء التام له منذ طفولته ، فكتم غيظه وتقدم الى الباب ونادى السيد كولبير ، وسأله :

ــ هل أمرت بتفتيش بيت فوكيه ؟

ــ لقد اسفر التفتيش يامولاى عن اوراق سلمت لى !

ــ سأنظر فيها فيما بعد ، ولكن أعطنى يدك اولا !

ــ يدى يامولاى ؟

ــ اجل يدك ، كى اضعها فى يد السيد دارتانيان ، فالحق يادارتانيان انك لاتعرف حتى الان قدر هذا السيد كولبير ، فاجتهد أن تعرفه ، فانه مرؤوس لا قيمة له ، ورئيس موهوب ، وسترفعه مواهبه الى أعلى الدرجات !

وسر كولبير كثيرا لهذا الاطراء العظيم من جانب الملك ، واقترب

من دارتانيان ، فحدق فى عينيه تحديقا تبينت فيه صراحته وطيبته وذكاؤه . فتأثر دارتانيان بما رأى ، وهو العالم بالفراسة . وقال كولبير له فى هدوء :

ــ ان ماقاله له الملك ياسيدى يدلك على انه خبير بالرجال ، والواقع اننى لا اكره الناس ولا احاربهم ، بل اكره آثامهم واحارب نقائصهم ، وانا اريد ان اهيىء للملكى حكما عظيما رخيا فى بلد يسوده الرخاء والامن والرفاهية ، ولئن جعلنى مسلكى فى بعض الاحيان بعيدا من قلوب الرجال الشرفاء ، محروما من محبتهم ، الا انه يضمن لى تقديرهم ، وانى مستعد فى سبيل هذا التقدير الكريم أن اضحى بحياتى ، وانى لاعجب كيف غاب عن نظرك الثاقب ياسيد دارتانيان أن تعرف كنه نفسيتى حتى الان ؟

ــ ان عين الانسان ياسيد كولبير لاتستطيع مهما تكن قوتها ان تحدق فى وهج الشمس . ولكن خبرنى لماذا تتعقب بالنكاية شخصا سقط من عليائه الى حضيض النقمة ؟

ــ انى لا اتعقبه ياسيدى ، ولكن اريد أن اتمكن من تنظيم الميزانية على اساس سليم . لا حبا فى تكديس الاموال واختزان الذهب ، بل لكى اعمر بها الديار ، واحمل اسم فرنسا الى ابعد الاقطار على متن البحار ، فابنى اسطولا عظيما ، وانشىء الموانىء ، واقيم المكاتب العامة والاكاديميات حتى تغدو فرنسا اكثر بلاد العالم حضـــارة ورقيا .. اريد ذلك ولا اعيش الا من اجل تحقيقه ، ولكن فوكيه كان عقبة فى الطريق !

وفى هذه اللحظة تدخل الملك فقال لدارتانيان :

ــ كلف عشرين من فرسانك بحراسة فوكيه ، على ان يذهبوا به من « انجير » الى حصن الباستيل فى باريس . وابلغ قائد العشرين ، ان يطلق النار على كل من يتحدث بصوت منخفض مع فوكيه !

ــ وانا يامولاى الا اذهب معهم ؟

ــ بل يذهب الدوق دى سان اينيان ، وتذهب انت فى مهمة اخرى

ــ ماهى يامولاى ؟

ــ تذهب على رأس تجريدة للاستيلاء على حصن الجزيرة الجميلة . ولك ان تكون هذه التجريدة من اى عدد تشاء من الفرق الكاملة المعدة .

ـ واذا صمد الحصن ، فهو امنع من عقاب الجو ؟
ـ لقد رايت ذلك الحصن فى طفولتى ، ولا أريد أن أراه قائما بعد الان . فاذهب ياسيدى ولا تعد الا بمفاتيح الحصن !
واقترب كولبير من دارتانيان وقال له :
ـ انها لمهمة ان انت احسنت القيام بها ضمنت عصا الماريشالية !
ـ ولماذا تقول « ان انت احسنت »
ـ لانها مهمة عسيرة ولا شك ، فان لك هناك صديقين حميمين. وانا اعلم أن الرجال من طرازك ليس هينا عليهم ان يمشوا فوق اجساد اصدقائهم ليصلوا الى تحقيق أطماعهم !
وطأطأ دارتانيان راسه ، فى حين مشى كولبير نحو الملك !. وبعد ربع ساعة تلقى دارتانيان أمرا كتابيا بنسف الجزيرة الجميلة اذا هى قاومت ، وبأن يعرض جميع من فيها على السيف والنسف ، لايبقى منهم على احد !
وكانت نفس دارتانيان مسرحا لصراع عجيب ، بيد أنه جمع جيش الملك ، وركب به السفن ، ثم اقلع الى الجزيرة الجميلة !

فى الجزيرة الجميلة

كانت الشمس قد مالت الى المغيب ، كأنها الحسناء الشقراء تهم بالغوص فى خضم من الفضة . وكان هناك رجلان وحيـــدان على الشاطىء الصخرى ، يتحدثان حديثا لا يسمعه أحد . وكان كل منهما يتلفت نحو المشرق بين الحين والحين كأنه يلقى على البحر ســؤالا تشفق شفتاه من التصريح به . بينما الاخر كان يتفرس فى ملامح صاحبه كأنما يريد ان يستشف ما تخفيه وراءها من اخبار وافكار !

هذان الرجلان هما الصديقان المنفيـــان الطريدان : بورتوس واراميس وهما الان فى حصن الجزيرة الجميلة منذ باء بالفشـــل مشروع اراميس الضخم فى نقل العرش من توام الى توام !

وتنسم بورتوس هواء البحر الرطب حتى ملأ منه صدره الضخم ، ثم قال :

ــ لقد اصبت ياعزيزى اراميس ، فليس ذلك الاختفاء الغامض الذى دام يومين امرا عاديا ، فقوارب الصيد التى خرجت الى البحر منذ يومين لم يعد منها قارب واحد . والبحر لا ينبىء مظهره عن عاصفة ، فالجو هادىء تماما ، ولو أن عاصفة هبت لما غرقت جميع سفننا بلا استثناء !

ــ معك حق ياعزيزى بورتوس ، ففى الامر شىء غريب !

ــ وفضلا عن هذا ، الم تلاحظ انه لو كانت جميع المراكب قــد تحطمت وغرقت ، لحملت الامواج شيئا من حطامها الى الشاطىء !

ــ لقد لاحظت هذا فعلا كما لاحظته !

ــ وهل لاحظت ايضا أن الســــفينتين الباقيتين فى الجزيرة ، واللتين ارسلتهما هذا الصباح للبحث عن السفن الاخرى ..

فقاطع اراميس صاحبه بصرخة وحركة عنيفة من يده قائلا :

ـ ماذا تقول يا بورتوس ؟ . هل ارسلت حقا القاربين ؟.

فاجابه بورتوس بكل بساطة :

ـ ارسلتهما من اجل البحث عن السفن الاخرى .

ـ يالك من شقى ! ماذا صنعت ؟! لقد هلكنا اذن .

ـ اتقول هلكنا ؟. ولماذا يهلكنا هذا يا اراميس ؟

فعض اراميس على شفتيه وقال له :

ـ لاشيء لاشيء . عفوك . انما اردت أن أقول اننا اذا أردنا مثلا ان نخرج فى نزهة بحرية ، لتعذر علينا هذا فى الوقت الحاضر !

ـ وهل لاحظت شيئا اخر ياصديقى أراميس ؟

ـ ماذا تقصد ؟

ـ اقصد أننا منذ اختفت سفننا ، قد انقطعت عنا قوارب الصيد التى كانت ترسو على شاطئنا قادمة من الشواطيء الاخرى ، وكانت تأتينا كل يوم أفواجا أفواجا !

ـ اجل ، لقد لاحظت ذلك . ولكن انظر يابورتوس : هذه النقطة السوداء على حرف الافق . ماهذا ؟

ـ سفينة .. أجل سفينة . اخيرا ستصلنا انباء !

وصاح اراميس وقد ابصر شراعا ثانيا وثالثا ورابعا :

ـ بل سفينتان . بل ثلاث . بل اربع !

ـ بل اكثر من ذلك ! يالله ! هذا أسطول كامل !

ـ ربما كانت هذه سفننا عائدة معا !

ـ بل هذه أكبر حجما من سفن الصيد . الم تلاحظ انها آتية من جهة نهر اللوار ؟

ـ نعم ، انها حقا آتية من جهة اللوار ؟

ـ وهاهم أولاء أهل الجزيرة جميعا قد رأوا السفن مثلنا فخرجوا لاستقبالها .

ومر فى هذه اللحظة صياد عجوز ، فسأله اراميس : « اهذه سفننا ؟ »

فحدق الرجل فى الافق البعيد ثم هز راسه وقال : «كلا يامولاى !. هذه ليست سفننا ، ولكنها سفن من الاسطول الملكى ، فهذا هو

طرازها ، فان لها قمرة ظاهرة ، وسفننا التجارية ليس لها هذه القمرة . ومثل هذه السفن يا مولاى يستخدمها الاسطول الملكى فى نقل الجنود المحاربين وعتادهم .

فوضع اراميس راسه بين كفيه ، ثم قال لبورتوس : « دق جرس الانذار يابورتوس ! »

— ادق جرس الانذار ؟ ولكن لماذا ؟ لعلها قوة ارسلها الينا الملك مددا لنا فى حماية الجزيرة ضد توامه الغاصب !

وكان اراميس قد استمر فى خدعة بورتوس الساذج فجعله منذ البداية يعتقد انهما يخدمان الملك ضد أخيه المزيف ، مع أن العكس هو الصحيح ، ولما جاء الى هذه الجزيرة هاربين ، افهمه انهما مكلفان من الملك بحماية هذا الحصن ضد أخيه المغتصب .

ولم يعلق اراميس على ملاحظة بورتوس ، بل استطرد قائلا : « هيا دق جرس الانذار . ومر ايضا رجال المدفعية بالتوجه الى مراكزهم امام بطاريات السواحل ، وبأن يكون رجال كل بطارية مستعدين لتمويلها بالقذائف والبارود ! »

ففتح بورتوس الطيب القلب عينيه وحملق فى صديقه ، كانما ليتاكد من أنه فى عالم اليقظة لا عالم الاحلام !. فضاق أراميس به ، وقال له بصوته العذب الهادىء ، كأنه يقرأ فصلا فى كنيسته من الانجيل :

— سأذهب انا لتنفيذ هذه الاوامر اذا لم تذهب انت ايها الصديق !

وكان هذا كافيا كى يمضى بورتوس لا يلوى على شىء ، وسرعان مادوت أجراس الانذار وطبول التعبئة داعية رجال المدفعية الى مراكزهم ، وظهرت القنابل من مخابئها ، وبرزت رءوس المستطلعين من النوافذ ، وأشرف بورتوس بنفسه على البطاريات واستعدادها. وكان أراميس طول ذلك الوقت يحدق فى الافق ويرى السفن تقترب، حتى صارت صواريها وأشرعتها ثم هياكلها ظاهرة للعيان !

وحينما خيم الليل ، تقدمت احدى هذه السفن القادمة حتى صارت على مرمى المدافع ، وتبين أراميس برغم الظلام حركة غير عادية على سطح هذه السفينة تمخضت عن هبوط قارب صغير منها

الى البحر فيه ثلاثة مجاذيف راح النوتية يجدفون بها متجهين الى الميناء ، ثم رسا القارب أمام الحصن وقفز منه شخص ، كانت فى يده ورقة راح يلوح بها كأنه يطلب الاتصال بأحد :

وسرعان ماعرف أهل الجزيرة فى هذا الشخص ربانا من أهلها ، كان يقود أحد القاربين اللذين ادخرهما آراميس وارسلهما بورتوس دون الرجوع اليه للبحث عن السفن الغائبة .. وطلب الرجل أن يقابل السيد ديربلاى ، فقاده جنديان الى حيث كان اراميس واقفا على الرئيس ، فابتدره اراميس قائلا :

ـ ماوراءك يابوناتاس ؟. من الذى ارسلك ؟

ـ مولاى ، ارسلنى الذين اسرونى !

ـ ومن الذين اسروك ؟

ـ انت تعلم يامولاى أننا خرجنا للبحث عن رفاقنا الغائبين ، وقد لقيتنا على بعد فرسخ واحد طرادة من سفن الملك فاسرتنا .

فصرخ فى وجهه بورتوس قائلا : « اى ملك ؟ »

غير ان اراميس حسم دهشة الربان بأن قال له : « استمر » . فمضى يقول : « وبعد ان اسرنا يامولاى ضمونا الى رفاقنا الذين كانوا قد وقعوا فى الاسر صباح امس ! »

وهنا ساله : « لماذا اطلقوا سراحك اليوم اذن ؟ »

ـ لكى نبلغك يامولاى انهم اسرونا !

ففكر اراميس لحظة ثم قال له : « انحن اذن محاصرون من جهة الساحل باسطول الملك ؟ »

ـ اجل يامولاى

ـ ومن الذى يقود هذا الاسطول ؟

ـ قائد فرسان حرس الملك !

ـ دارتانيان ؟

ـ اظن ان هذا هو اسمه ؟

ـ وهل هو الذى أعطاك هذا الخطاب ؟

ـ اجل يامولاى !

وامر اراميس بتقريب مشعل منه ، ثم اخذ يقرأ فى ضوئه السطور التالية :

« امر ملكى بالاستيلاء على الجزيرة الجميلة .

« امر بعرض حاميتها على السيف ان هى قاومت .

« امر باسر جميع رجال الحامية اذا استسلموا .

« السيد فوكيه اعتقلته اول من امس وارسلته الى الباستيل » .

وتحت هذا كله توقيع دارتانيان ، فاكفهر وجه أراميس ، وكور الورقة بين يديه ، بينما سأله بورتوس : « ماذا هناك ؟ » . فأجاب فى هدوء :

ـ لا شىء يا صديقى .. لا شىء !

ثم التفت الى الربان يوناتاس ، وسأله : « هل تحدثت الى دارتانيان ؟ » .

ـ اجل يا مولاى !

ـ وماذا قال لك ؟

ـ قال لى : انه فى حالة رغبة مولاى فى معرفة معلومات اوسع من هذه التى كتبها فى رسالته ، فانه يسره أن يتحدث اليك .

ـ أين يكون اللقاء ؟

ـ على سطح سفينته ، فقد قال لى قائد الفرسان ان احملك يا مولاى ، وأحمل البارون دى فالونا « بورتوس » ، ومهندس المدفعية والتحصينات فى قاربى هذا الى سفينته !

فتهلل وجه بورتوس الطيب القلب وقال :

ـ هيا بنا نذهب الى هذا العزيز دارتانيان !

فقال له أراميس : « أأنت مجنون ؟ .. من الذى انباك أن هذا ليس فخا ؟! » .

ـ وماذا نصنع ؟ . أليس دارتانيان يدعونا اليه ؟!

ـ من قال لك ان هذا هو دارتانيان حقا ؟

ـ ان الخط خطه .

ـ إن الخطوط يمكن تقليدها ! الم تلاحظ ان هذا الخط مضطرب ؟

ـ معك حق !

وقال الربان بعد لحظة صمت موجها الخطاب الى اراميس :

ــ وانا يا مولاى ماذا اصنع ؟
ــ عد الى هذا القائد !
ــ سمعا وطاعة يا مولاى .
ــ وقل له اننا نرجوه أن يأتي هو الى الجزيرة .
ــ ولكن اذا رفض يا مولاى الحضور ؟
ــ اذا رفض الحضـــور ، فان لدينـا مدافع في مكنتنا أن نستخدمها .

فصاح بورتوس مذعورا : « انستخدم المدافع ضد دارتانيان ؟ » .

ــ اذا كان هذا هو دارتانيان حقا يا بورتوس ، فانه سيحضر . اذهب أنت يايوناتاس ونفذ ما امرتك به !

ثم تناول اراميس يد بورتوس وراح يشرح له ما غمض عليه فقال له :

ــ ساقول لك الان أمورا كنت احب ان اكتمها عنك ، لاحمل عنك عبء الهموم والتدبير ، لولا اننا يا صاحبى اصبحنا فى موقف لا مناص فيه من القتال ! .. انك يا صديقى رجل طيب مخلص ، ولهذا اقول لك بكل صراحة اننى خدعتك !

ــ انت خدعتنى ؟ .. هذا مستحيل ! .. لا شك انك فعلت هذا لمصلحتى وحرصا عليها يا صديقى !

ــ ذلك ما اعتقدته مخلصا حين خدعتك !

ثم بين له ان الحقيقة على عكس ما افهمه اولا ، فهما يناصران الملك المزيف المغتصب . وان الملك الحقيقى قد كسب المعركة بفضل تدخل فوكيه ، وان فوكيه قد ضمن حياتهما ، ولكن ها هو ذا فوكيه قد زال عنه جاهه ومنصبه ، وصار الامر الى هذا الموقف الحرج . وسيأتى دارتانيان فيفصل لهما ما حدث اخيرا من نكبة فوكيه . ولكن المهم الان هو اخراج بورتوس من هذا المأزق الذى لا ذنب له فيه ، فكيف المخرج ؟ ثم قال له :

ــ ان الملك قد تخلص الان من جميع اعدائه ، ولم يبق له الا عدوّ واحد ، وذلك العدو هو انا . انا وحدى . واما انت فقد غررت بك واعتقلتك أسيرا فى هذا الحصن معى ، واليوم اطلق سراحك لتخف الى ملكك الشرعى ، وهذا هو الحل الوحيد !

ـ ولماذا لا تأتى معى فنسلم الحصن الى دارتانيان ؟
ـ لانه من المحتمل ان يأتينا دارتانيان بشروط واوامر تضطرنا الى الدفاع مرغمين !
ـ هناك حل آخر ابسط من هذا .. لماذا لا نستقل قاربا ونتسلل الى فرنسا ؟
ـ يا صديقي العزيز دع أفكار الاطفال ، ولنواجه المسالة رجالا فى التدبير والتنفيذ .. ان فرنسا كلها اليوم فى يد الملك ، ولن نجد منه مهربا فى اى بقعة من بقاعها . انظر ! هناك من ينادينا من الميناء!
ـ هذا دارتانيان ولا شك !
ووصل اليهما صوت قائد الفرسان يقول : « هذا انا فعلا ايها الصديقان ! » . ثم قفز دارتانيان الى البر وصعد الى الرصيف الذى كان ينتظره فوقه صديقاه ، وجلس عند أسفل السلم ضابط آخر كان يتبعه .
وقال دارتانيان لصديقيه : « ان الاوامر صريحة فى الاستيلاء على الجزيرة بأى ثمن ، وفى القضاء على الحامية كلها عند اى مقاومة ! » .
فساله بورتوس : « ولكن لماذا كل هذا التشدد ؟ » .
ـ انها مقتضيات السياسة العليا ، وقد أسرنا جميع السفن التى كانت هنا ، واذا حاولتما الفرار فان سفن الاسطول المنتشرة فى البحر ستقبض عليكما لانها تسد عليكما الطريق ، فالملك يريدكما ، ولا مفر من حصوله على ما يريد . وكانت فكرتى الاولى أن أحضركما الى سفينتى ، ثم بعد ذلك اطلق سراحكما . ولكن من يدرينى الان اننى لا أجد عند عودتى الى السفينة رئيسا جديدا ، واوامر سرية تنتزع منى القيادة ليتولاها شخص آخر يتصرف فى وفيكما بغير امل فى النجاة !
فقال أراميس : « يجب اذن أن أبقى فى الجزيرة ، وحصونها كفيلة بحمايتها . ولكن خذ معك بورتوس ، فسيسهل عليه بمساعدتك ان يقنع الملك بانه لا دخل له فى الموضوع من بدايته الى نهايته ! » .
فقال دارتانيان لبورتوس : « اتريد ان تأتى معى ؟ » . فاجاب هذا قائلا : « اطلب مهلة للتفكير ! » .

وافترق دارتانيان بعد ذلك عنهما عائدا الى سفينة قيادته ، وقد راح فى الطريق يتعمق تلك الفكرة الوليدة وينميها !

فلما وضع قدمه على سطح السـفينة جمع هيئة اركان حربه المكونة من الضباط الثمانية التابعين له ، وفيهم قائد السلاح البحرى ، عند مقابلته لاراميس وبورتوس ، واربعة آخرون . ثم خاطبهم قائلا :

ـ ايها السادة .. لقد توجهت الى الجزيرة ، فوجدت فيها حامية قوية حسنة التدريب والاستعداد . والتحصينات مقامة بحيث تصمد لاى هجوم . ولهذا اعتزمت ان ارسل فى طلب اثنين من كبار ضباط هذه الحامية كى نتحدث معهما ونتناقش ، واعتقد أن ابتعادهما عن رفاقهما وجنودهما سيجعلهما أقرب الى الاصغاء لصوت العقل . فما رأيكم فى هذه الخطة أيها السادة ؟

ـ ما دامت التحصينات بهذا الشكل ، فالنية اذن مبيتة على العصيان وخلع طاعة الملك ؟!

ـ هو ما تقول أيها السيد ، ولكن تذكر ان الجزيرة الجميلة اقطاع مستقل مصرح له بجيش وقوة حربية مستقلة بالنسبة لموقعه الجغرافى . وهذا الاقطاع ملك للسيد فوكيه ، وحاميته تقوم على الدفاع بأمر منه ، وهى تجهل ما حدث أخيرا للسيد فوكيه ، وستقوم بالدفاع طبقا لاوامره اليها . ولهذا أيضا خطر لى أن أستقدم زعيمى ضباط الحامية ، ليريا قوتنا المستعدة ، وما ينتظر الحامية ان هى أصرت على العصيان ، فيكون هذا مدعاة لاستسلامها بغير مقاومة ، وكفى الله الفريقين القتال . وبذلك نكون قد نفذنا رغبة الملك دون ان ندفع ذلك الثمن الفادح الذى يتكلفه أخذ مثل هذا الحصن عنوة !

وعندئذ هم الضابط الذى كان قد تبع دارتانيان الى البر بالكلام ، ولكن دارتانيان أسكته باشارة من يده وقال :

ـ اعلم ما ستقول . فانا اعرف ان هناك امرا ملكيا بمنع كل اتصال سرى مع حامية الجزيرة ، ولهذا اقترحت التفاهم بحضور هيئة اركان الحرب !

فتبادل الضباط النظرات ، وسر دارتانيان لاستعدادهم للموافقة ،

ولكن الضابط اخرج من صدره خطابا مختوما سلمه الى دارتانيان ، وكان عليه من الخارج عبارة « رقم ١ » . فقال دارتانيان متعجبا : « ما هذا ؟ » . فرد الضابط قائلا : « اقرأه يا سيدى ! » .

ففض دارتانيان الخطاب وقرأ فيه ما يلى :

« محرم على السيد دارتانيان أن يجمع اى مجلس حربى . أو يتشاور باى وسيلة قبل استسلام الجزيرة والقبض على جميع الاسرى .. لويس » .

فابتسم دارتانيان وهو يغالب غيظه وقال : « حسنا .. امر الملك مطاع ! » .

وكانت الضربة مباشرة وقاسية بل قاضية ، غير أن دارتانيان لم ييأس ، فقال للضباط :

ـ ايها السادة ، ما دام الملك قد كلف رجلا آخر سواى بحمل اوامر منه سرية ، فمعنى ذلك اننى لم اعد موضع ثقته ، وانى لاهل فعلا لعدم الثقة لو اننى قبلت الاستمرار فى الاضطلاع بمقاليد القيادة بعد توجيه هذه الاهانة الى ! .. ولهذا سأعود من فورى لتقديم استقالتى الى الملك . والان ، ليذهب كل منكم الى مكانه وليأمر بالاستعداد للعودة فورا ، فسنقلع بعد ساعة !

وهم الجميع بأن يصدعوا بالامر الا ذلك الضابط الذى كان يحمل الامر السرى ، فوجه دارتانيان اليه الكلام قائلا :

ـ اظن انه ليس لديك أوامر بالاعتراض أيضا فى هذه المرة ؟

وكان دارتانيان موقنا من أن رفع الحصار بحجة العودة لتقديم الاستقالة ستتيح لصديقيه فرصة الهرب اما الى انجلترا أو الى اسبانيا . فاذا ترضاه الملك وثبته فى القيادة ، عاد ليجد الجزيرة الجميلة مدينة مفتوحة . بعد أن تكون الطيور قد فارقت القفص . ولكن وقع ما لم يكن فى حسبانه ، فقد أخرج الضابط من صدره أمرا مختوما يحمل « الرقم ٢ » .. هذا نصه :

« اذا أعلن السيد دارتانيان رغبته فى الاستقالة ، فيعتبر متخليا عن القيادة ، ولا تكون له طاعة لدى اى ضابط ممن تحت قيادته ، ويصير ترحيله فورا الى فرنسا برفقة الضابط الذى يسلمه هذا الامر ، ويكون هذا الضابط مسئولا عن أسيره أمامنا .. لويس » .

فاكفهر وجه دارتانيان . برغم انه لم يعرف فى حياته الوجل او الفزع . فقد وجد ان كل احتمال قد حسب له حسابه ، فاعتمد راسه بذراعيه وراح يفكر بينه وبين نفسه :

ــ لو اننى وضعت هذا الامر فى جيبى ، فمن الذى يعلم به ؟ والى ان يعلم الملك اكون قد انقذت صديقى المسكينين . فلنتقدم فى جسارة ، وليكن ما يكون بعد ذلك !

وهم بأن ينفذ ذلك القرار ، ولكنه فوجىء بأن راى جميع الضباط حوله وفى يد كل منهم نسخة من الامر ، قام بتوزيعها عليهم ذلك الضابط الجهنمى ، فقال لنفسه : « اذن فهذا الاحتمال ايضا قد حسب حسابه ! » .

وتقدم الضابط الجهنمى وقال له :

ــ سيدى .. انى انتظر موافقتك كى نرحل معا !

فصرف دارتانيان على اسنانه وقال له : « حسنا ! .. انى مستعد ! » .

فامر الضابط فى الحال باعداد زورق ، وقال دارتانيان قبل ان يهبط اليه مع حارسه : « ولكن كيف ستنسقون العمل ؟ » .

فقال قائد السلاح البحرى : « بعد رحيلك يا سيدى ساكون انا قائد العمليات بأمر الملك . هكذا قيل لى قبل قيام الحملة ! » .

فقال له الضابط الجهنمى : « اذن يا سيدى فاليك هذا الامر « رقم ٣ » الذى يعين لك اختصاصاتك الجديدة ! » .

وهبط دارتانيان معه بعد ذلك الى القارب الذى ابحر نحو فرنسا تزجيه ريح مواتية . وفى الطريق قال دارتانيان :

ــ انى لاتشوق الى معرفة الاوامر الجديدة التى لدى القائد الجديد . وأحسبها جميعا أوامر سلمية .. أليس كذلك ؟

ــ ولم يتم جملته لان دوى مدفع قطع عليه كلامه ، ثم سقطت القذيفة فى الماء ، ثم أخرى وثالثة !

وأجاب الضابط : « لقد فتحت النيران على حصن الجزيرة الجميلة ! »

معركة في الظلام

دخل اراميس وبورتوس الى الحصن الرئيسى بالجزيرة ، ليتشاوروا فى الامر ، وكان بورتوس كالعادة يبدو قلقا ، فقال له اراميس :

ـ سأقول لك الان ما هى خطة دارتانيان التى ستكفل لنا الحرية قبل اثنتى عشرة ساعة ! .. ان دارتانيان سيقدم الى الملك استقالته. وفي الفترة التي يسود فيها الارتباك اثناء غيابه ويرتفع الحصار ، نركن نحن الي الفرار ، واذا لم نتمكن من الفرار معا ، فلتذهب انت على الاقل .

فهز بورتوس راسه الضخم وقال : « اما أن نهرب معا ، واما أن نبقى معا ! » .

ـ ان لك لقلبا كبيرا يابورتوس ، وسوف نعيش اعواما اخرى طويلة لنحتفظ للعالم بنماذج من رجال نادر مثالهم فى الناس . واعتمد علي وثق بى يا عزيزى . فاننا لم نتلق جوابا من دارتانيان وهى علامة خير تبشر بنجاح الخطة . وقد امرت انا بدفع قارب على عجل الي مدخل سرداب لكماريا الذى تعرف انت موضعه ، فكم من مرة اتخذنا منه مخابئا للثعالب !

ـ انه يؤدى الى البحر من منفذ بعيد بين الصخور .. اليس كذلك ؟

ـ نعم يا صديقي .. وعند الضرورة القصوى سنلوذ بهذا السرداب ، ونختفي فيه حتى يهبط الليل ، فنخرج القارب من الناحية الاخرى ونركب البحر تحت جنح الظلام !

وشق السكون صوت يصيح فجاة : « الى السلاح ! » .

وتكررت هذه الصيحة مائة مرة ، ورن صداها فى الغرفة التى خلا فيها الصديقان ، فحملت هذه الصيحة الدهشة الى احدهما والقلق الى الاخر !

وفتح اراميس النافذة فراى جمهورا من الناس يعدون وفى

ايديهم المشاعل ، كما راى النســـاء موليات ، والرجال المســلحين يتخذون مواقفهم ، وصاح جندى عرف أراميس يخبره بما حدث :

ــ الاسطول ! الاسطول ! على بعد نصف مرمى المدافع !

ــ وصرخ بورتوس بصوته الهائل : « الى السـلاح ! » .

وهرع الاثنان معا الى البطـاريات ، فأبصر الصـــــنادل محملة بالجنود ، وقد اتجهت ثلاث وجهات فى وقت واحد . فامر اراميس باطلاق النار عليها .

ولكن الصنادل كانت قريبة جدا بحيث لم تصبها قذائف المدافع الساحلية وهبط الجنود الى الشـاطىء ، وبدأ الالتحام وجها لوجه !

وهجم اراميس وبورتوس بقوة عنيفة ، وهما يحمسـان رجالهما ، حتى ان جنود الملك اضطروا الى العــــــودة الى مراكبهم مثخنين بالجراح .

وصاح اراميس قائلا لبورتوس :

ــ لابد لنا من أسير حالا !

فقفز بورتوس وانحنى فوق الشاطىء وامسك ضابطا من جيش الملك ينتظر دوره لركوب الصندل من رقبته ، ثم رفعه فى الهواء وقد اتخذ منه درعا حتى لا يصيبه الرصاص ، ثم ألقى به تحت قدمى أراميس وهو يقول له : « هذا هو الاسير ! »

وامتلأ اهل الجزيرة زهوا بذلك النصر على جيوش الملك لويس الرابع عشر ، ولم يشجعهم أراميـس على ذلك ، لانه كان يعلم أن غضب الملك سيزداد اشتعالا بذلك الانتصار المهين لشرف جيشـه ، حتى انه لن يقنع بما هو دون القضاء عليهم قضاء ساحقا ماحقا !

وعنى أراميس باستجواب الاسير ، فدعاه أولا الى مشاركتهما الطعام والشراب بنية استدراجه بعد ذلك للكلام تحت الشراب .

وأنس الضابط الشاب اليهما ، وروى لهما استقالة دارتانيان ورحيله بأمر من الملك . كما روى لهما عزم خلفه على أخذ الجزيرة الجميلة بالمفاجاة . وتبادل الصاحبان النظرات ، وكانت نظراتهمـا طافحة بالالم والقنوط ، فان خطة دارتانيان التى عقدا عليها الامال ،

قد تبخرت وتلاشت كما يتلاشى الضباب حين تتسلط عليه أشعة الشمس !

وسأل اراميس الاسير : « ماهى نية الملك بالنسبة لزعماء الجزيرة وكبار قادتها ؟ »

فقال : « ان الامر صادر بالقتل اثناء المعركة ، والاسر بعد انتهائها ! »

وانتقل الحديث من موضوع الى موضوع فطال الجلوس الى مائدة العشاء ، وقد سحر الرجل بلباقة أراميس وذكائه ، وبطيبة قلب بورتوس واخلاصه . فلما فرغت زجاجة النبيذ السادسة قال الضابط الشاب :

ــ الم تكونا ايها السيدان من فرسان حرس الملك السابق لويس الثالث عشر ؟

فقال بورتوس وهو يفتل شاربه : « نعم ياسيدى ! »

فقال الضابط : «لولا انني اخشى الاتهام بتمجيد ذكرى والدى ، لقلت : انكما كنتما خير فرسان ذلك الملك على الاطلاق ! »

وساله بورتوس فى دهشة : « من هو والدك ؟ » فاجاب قائلا : « ان اسمى جورج دى بيسكارا »

فصاح بورتوس : «بيسكارا !. هل تتذكر هذا الاسم ياأراميس ؟.» انه رجل من جنود الكردينال ريشيليو ، كان هو الوحيد فى المجموعة الذى لم نستطع اصابته بجرح . فمرحبا بك ياابن رفيق السلاح القديم والرجل الباسل ! »

واستطاع اراميس ان يقرا على وجه جورج شيئا غامضا ، فقال له :

ــ يخيل الى انك تريد ان تقول لنا شيئا ، ولكنك متردد ؟

ــ نعم ، لانني اذا تكلمت كنت خاطئا لواجبى الذى يقضي بالكتمان ولكن هذا هو صوت جديد يعلو على صوتى !

ــ انه مدفع !

ــ بل مدفع ورصاص ، وهذا ماكنت احاذر ان اقوله قبل الاوان. ان الهجوم السابق على الميناء لم يكن الا خدعة لستر نزول الجنود من الخلف !

فقال اسقف فان فى هدوء : « لقد قضى علينا اذن ؟! »

اما بورتوس فنهض من المائدة وتناول سـيفه وغدارته ، وكان الناس قد تجمعوا فى شوارع الجزيرة ليلوذوا بالحصن . فاطل عليهم اراميس وقال لهم :

ـ ان فوكيه حاميكم وصديقكم قد قبض عليه بامر الملك ، وسيق الى الباستيل . فماذا انتم قائلون ؟

فسرت فى الناس همهمة غضب ، وتنادوا بالانتقام لفوكيه ، فقال اراميس محاولا تهدئة روعهم :

ـ كلا أيها الرفاق ! لا تقاوموا .. فالملك هو السيد المطلق فى مملكته ، وهو ظل الله على الارض . فاخضعوا للملك خضوعكم لله ، والقوا السلاح أيها الرفاق وتفرقوا الى بيوتكم ، فقد نزل جنود الملك أرض الجزيرة ، ومعنى هذا ان القتال اذا نشب سيكون مذبحة . فانصرفوا على بركة الله واغنموا السلامة ورضى الملك !

ثم التفت الى بورتوس وقال : اسرع بنا ياصديقى الى السرداب فان الزورق فى انتظارنا .

ووصل الصديقان بعد سير طويل الى فتحة السرداب ، وكان وصولهما اليه بعد انتصاف الليل ، وقد حملا معهما المال والسلاح. وكان فى السرداب ثلاثة رجال أمناء اختارهم اراميس ، وهم وحدهم الذين يعرفون سر السرداب . ونادى اراميس عند الفتحة ، فأجابه صوت (ايف) من داخلها ، فدخل ، وعاين أراميس القارب فوجده حسن الصنعة متينا ، وفيه برميل من البارود وشحنة من الرصاص لاستخدامها فى الدفاع عن الحاجة ، مع رشاقة تسمح له بسرعة مناسبة وصندوق للمؤونة يكفى لرحلة طويلة ، ومجاذيف احتياطية للطوارىء . وبأمر من أراميس وضع الصيادون الثلاثة العجلات تحت القارب وشرعوا فى دحرجته نحو نهاية السرداب الاخرى من وجهة البحر .

وفى هذه اللحظة سمعت فى الخارج صيحات نباح كلاب ، فخرج أراميس وتبعه بورتوس من السرداب . وكان الفجر قد بدات بواكيره تلوح فى الافق ، مما يدل على أن الضياء سينتشر بعد ربع ساعة . واخذ نباح الكلاب يقترب عميقا متواترا مما دل على أنهم فى اثر قنيصة . فقال أراميس :

ـ أعجب شىء أن يفكر احد فى الصيد فى هذه الظروف . وأرى أن نعود الى السرداب من باب الاحتياط !

لكنهم ما كادوا يسيرون داخل السرداب عشر خطوات حتى شعروا بتنفس عميق يتردد فى فجوة الكهف ، ثم مرق ثعلب كالسهم وقفز من فوق القارب فاختفى فى الناحية الاخرى من السرداب الى جهة البحر . فاكفهر وجه اراميس لان ذلك سيؤدى الى كشف المخبأ . فالصيادون الذين أطلقوا الكلاب سيفدون ولاشك وراء طريدتهم !

وقد صح ظنه اذ ظهرت على اثر ذلك ستة كلاب وراء الثعلب ، ونظر الصيادون الثلاثة اليها وقالوا على الفور : « ليست هذه كلاب صاحب لوكماريا »

فغمغم اراميس وقد ابصر اشباحا عند فتحة السرداب :

ـ انهم رجال الملك وعلى راسهم جورج بيسكارا فوق صهوة جواد رمادي . فعليكم ان تقتلوا الكلاب الستة عند دخولها ، فان الصخرة الكبيرة التى تعترض السرداب ، والتى اختفى وراءها الثعلب ، ستوقفها عند حدها ! ومتى وقفت هناك فاقتلوها بالخناجر !

وما هى الا دقائق حتى شقت الجو صيحات فظيعة عن الم حيوانى ، ثم خفتت جميع الاصوات ، فقال اراميس بهدوء وفتور :

ـ عظيم !. والان جاء دور السادة !

فقال بورتوس : « وماذا نصنع بهم ؟ »

فقال له : « نكمن وننتظر ثم نقتل !.. انهم لايزيدون على ستة عشر حتى الان ! »

ـ لن يستغرق هذا اكثر من عشر دقائق اذا استخدمنا البنادق. وسنكمن وراء الصخرة وكلما دخل واحد ارديناه !

ـ وهذا المسكين بيسكارا ابن رفيقنا القديم ؟

ـ نرديه قبلهم ، لانه يعرفنا !

وكان بيسكارا اول من دخل السرداب ، اما رفاقه فاحاطوا بفوهته منتظرين . فلما وصل الى الصخرة رفع (ايف) كبير الصيادين يده بسكين الصيد ، بيد أن قبضة بورتوس الحديدية شلتها ، وأدرك بيسكارا الموقف ففتح فمه ليصرخ ، غير أن اراميس حشاه له بمنديله ، وهمس فى اذنه :

ـ نحن لانريد بك اى سوء !.. ولكنا سنقتلك عند اول كلمة تنطق بها كما قتلنا الكلاب منذ قليل !

ـ لقد عرفتكما !. ولكن لماذا انتما هنا ؟ لقد ظننتكما فى الحصن. وقد فعلت ماوسعنى فى امر الوساطة ، ولكن الاوامر صريحة بقتلكما شنقا !

ـ لولا رافتنا لكنت الان فى عداد الاموات ، وسنطلق سراحك بشرط أن تعدنا بشرفك الا تبوح لاحد بما رايت الان باى شكل !

ـ لا اقسم على ذلك فقط ، بل اقسم ايضا ان اعمل كل مافى وسعى لمنع زملائى من دخول هذا السرداب !

وفى هذه اللحظة تعالت اصـــــوات اخوانه من الخارج ينادونه ويستعجلونه ، فاسرع خارجا كى يثنيهـم عن الدخول ، وارهف اراميس وبورتوس اذنيهما ، فاذا رفاق بيسكارا يصيحون دهشة لما بدا من اصفرار وجهه ، وقال له احدهم :

ـ لعل الحفرة مسكونة ؟!

فاجاب بيسكارا : « كلا ، ولكن البرد شديد داخل الكهف ، ولم اجد للكلاب اثرا ، فلابد انها سلكت طريقا آخر ! »

فقال آخر ممن معه : « لا اشك فى ان بيسكارا قد راى شـيئا مخيفا ، وانى متلهف على رؤية هذا الشىء ولو كان هو الشـيطان نفسه !. والان الى السرداب ! »

فردد الجميع الهتاف الذى رددته جنبـات السرداب ، وحاول بيسكارا جهده أن يثنيهم عن عزمهم ، حتى كادت تنشب مشاجرة ، واصروا على الدخول جماعة ، ثم جاءتهم نجدة قوامها ثمانون شخصا من كتيبة الحرس ، وتقدموا فى داخل السرداب وهم يصـخبون ، وفجأة دوت طلقات بنادق ، وعقدت سحب الدخان فى جو السرداب، وتعالت صيحات وصرخات الم وفزع .

ثم قسم قائد القوة رجاله الثمانين الى ثلاثة اقسام للدخل فوجا بعد فوج ، وتطلق النار اثناء دخولها فى جميـع الاتجاهات ، فقال بيسكارا : « انى ارجو ان اتقدم الفوج الاول ! »

ـ وانا لا اضن عليك بهذا الشرف ، فامتشق سيفك !

ـ بل سادخل هكذا اعزل ، فانى لا اعتزم الدخول لاقتل احدا ، بل لاموت !

ثم تقدم الفوج الاول عارى الراس وذراعاه فوق صدره ، وصاح :
ـ الى الامام ايها السادة !

واطلق المعتصمون الخمسة بنادقهم مرتين فصرعوا عشرة رجال ، وكان اراميس قد تعود ظلام السرداب ، فكان من السهل عليه ان يعد الضحايا واحدا وحدا . ثم أمر الصيادين الثلاثة بدحرجة القارب حتى الصخرة الضخمة التى هى باب الخلاص ، بينما تناول بورتوس القارب بين يديه ورفعه قليلا ليسر للرجال الثلاثة دحرجته فوق العجل بسرعة !. وهكذا وصل القارب الى الصخرة فى الفرصة التى كان بيسكارا فيها يتحدث الى رئيس القوة فى الخارج !

وامسك بورتوس بهذه الصخرة الضخمة من اساسها ، ثم مال عليها بكتفه فأزاحها قليلا عن مكانها ، ثم كرر المحاولة مثنى وثلاث ، وجعل يدفعها بقدمه وهو مستند الى جدار السرداب الصخرى حتى افسحت الصخرة الطريق ، فظهر ضوء النهار الباكر من ناحية البحر ، وشرع الخدم بعد ذلك فى دفع الزورق لاجتياز المضيق الكائن بين الصخرة وجدار السرداب ، ذلك المضيق الذى اوجده بورتوس !

وفى هذه اللحظة وصلت القوة الى فوهة السرداب ، فنادى بورتوس وقال له : « يا صديقى ، لقد وصل لاعدائنا مدد جديد ! »

فأجاب بورتوس فى هدوء : « ما العمل اذن ؟ »

ـ قد تستطيع قتل خمسة عشر رجلا منهم على الاكثر ، ولكن عددهم حوالى ثمانين !. واذا اطلقوا النار دفعة واحدة مزقونا تمزيقا، وارى ان يستأنف خدمنا الثلاثة دحرجة القارب نحو البحر ! اما نحن الاثنان فنحتفظ مهنا هنا بالبنادق والرصاص والبارود

ـ ولكن نحن وحدنا لانستطيع ان نطلق الا رصاصتين فى كل مرة!

ـ اذن اوجد لنا حلا غير اطلاق الرصاص .

ـ قد وجدت الحل !. فساكمن وراء هذه الصخرة وفى يدى هذا القضيب من الحديد . وكلما دخل فوج هبط القضيب من مكمنى فوق الرءوس بسرعة ثلاثين ضربة فى الدقيقة !

وكمن بورتوس فى اشد اقسام السرداب ظلاما ، وهو القسم

الثانى ، فى حين دخل اراميس فى القسم الثالث ، وأمسك العملاق بورتوس فى يده ذلك القضيب من الحديد الذى يزن خمسين رطلا . وكان بورتوس يحمل الضيب بكل سهولة ورشاقة . وفى هذا الوقت كان الخدم الثلاثة يدفعون القارب الى البحر وحدهم وقد تخلوا عن القضيب الحديدى الذى كانوا يستعملونه بمثابة رافعة .

اما اراميس فكان منبطحا على بطنه فى الجزء المضىء من السرداب، مشغولا فى عملية خفية !

وفجاة سمع صوت أمر يصدر ، وكان هو الامر الاخير لقائد القوة، فهجم خمسة وعشرون رجلا ، هم الفوج الاول ، ودخلوا القسم الاول من السرداب . وشرعوا يطلقون النار اعتباطا فملأ الدخان الجو ، وتقدم بيسكارا المجموعة نحو مكمن بورتوس ، فتنهد بورتوس وهبط بالقضيب الحديدى على أم راس بيسكارا فسقط قتيلا دون أن يصدر عنه أدنى صوت ، ثم ارتفع القضيب وهبط عشر مرات على التوالى فى عشر ثوان ، وتخلف عنه عشرة من القتلى !

وكان الجنود لا يرون شيئا ، لشدة الظلام وكثرة الدخان ، بل كانوا يسمعون فقط الصياح والانين ، ويدوس بعضهم بعضا ، بينما القضيب الحديدى يؤدى مهمته فى صمت ومثابرة !

وفى اعقاب الفوج الاول ، دخل الفوج الثانى بقيادة قائد القوة نفسه . وقد اشعل فى يده فرع شجرة بمثابة مشعل يستعين به على تبديد الظلام ، فلما وصل ذلك الفوج الى الموضع الذى يكمن وراءه بورتوس وقد تكدست الجثث ، تراجع الصف الاول منهم مذعورا ، وتقهقر القائد نفسه حتى بلغ دون أن يدرى مكمن بورتوس ، فامتدت من الظلام يد هائلة أطبقت على رقبته ، فتدافعت يداه فى الهواء وسقطت الشعلة من يده فانطفأت فى الدم ، وبعد ثانية واحدة كان صاحب الشعلة ملقى بجوارها جثة هامدة !.

وساد الظلام ثانية بعد انطفاء الشعلة ، فصاح الملازم قائد الفوج الثالث : « اطلقوا النار ! »

فدوى الرصاص فى جنبات السرداب ، واضاء لحظة بنور الطلقات الثاقب ثم ساد الظلام مرة اخرى احلك واشد بما انتشر فى الجو من سحب الدخان !

موت الفارس بورتوس

قاد اراميس بورتوس الى الجزء قبل الاخير من السرداب ، واشار له الى تجويف فى الجدار ، فراى برميلا من البارود يزن نحوا من ثمانين رطلا ، وقد تدلى منه فتيل ، وقال له اراميس :

ـ ياصديقى بورتوس ، عليك ان تاخذ هذا البرميل ، بعد أن اشعل أنا الفتيل ، ثم تلقيه فى وسط اعدائنا هؤلاء . اما انا فسالحق بخدمنا فى القارب ، وأساعدهم فى دفعه الى الماء ، وسانتظرك على الشاطىء حتى تسرع الينا !

وقرب بورتوس الشعلة من الفتيل فتوهجت وسط الظلام الحالك ، وراح بورتوس ينفخ عليه بفمه حتى لا ينطفىء ، وعلى ذلك الضوء راى الجنود المهاجمون ماهو مزمع ان يحدث لهم ، فركبهم الذعر ، ولا سيما ان صورة زملائهم الصرعى ماثلة امامهم مثول العيان لا مثول التذكار ، فانطلقت من افواههم صيحة ذعر ، وحاول بعضهم أن ينكص على عقبيه ، ولكن من خلفهم كانوا يسدون عليهم الطريق ، ولجأ بعضهم الاخر الى اطلاق النار بيد مرتعشة ، وديس آخرون منهم بالاقدام فى ذلك الزحام !

وكان منظر بورتوس العملاق الجبار رائعا حقا ، وقد رفع بيديه الهائلتين آلة الدمار فوق راسه ، وتاهب لالقائها على هذا الجيش المذعور .. ولكن هذا المنظر الرائع النادر لم يدم طويلا ، ولكنه دام مدة كافية كى يأمر قائد الفوج الثالث ثمانية من رجاله باطلاق النار على بورتوس .. بيد ان من صدر اليهم الامر لم يحكم يدهم ضبط الهدف ، فأصابوا رفاقهم بنيران بنادقهم !

وانطلقت من جوف الكهف ضحكة رنانة ، ثم طار البرميل المشتعل الفتيل فى الهواء من فوق تل اشلاء القتلى والصرعى ، ليسقط وسط الجنود الاحياء المتدافعين !

وتساقطت فوق كتفى بورتوس احجار ثقيلة ، راح يتلقاها بذراعيه الجبارين غير مبال بها !. وفى هذه اللحظة كان الانفجار قد أثر فى البحر ، فجرف الزورق بعيدا عن الشاطىء عشرين خطوة !

ثم تهاوت بعد الصخور الصغيرة صخور اكبر واضخم .. فكان هذا العبء الجديد قد استنهض قوة العملاق الكامنة ، فنهض وحاول الفرار .. ولكن قوة الطبيعة المنهارة الثائرة كانت أعتى واعظم ، فسقط ذلك الجبار فى وسط حشد رائع يليق بجبروته ، أعدته له عناصر الوجود التى تباريه قوة وضراوة !

وقفز أراميس الى البر بعد جهد فى اعادة القارب اليه ، وانحنى فوقه وناداه بصوت مختلج :

ـ بورتوس .. بورتوس !

فرفع بورتوس الركام الذى تجمع فوقه واجابه بصوت ضعيف :

ـ صبرا صبرا .!

ثم سكت الى الابد !

وحار اراميس ماذا يصنع امام هذه الفجيعة ، ثم ارعوى أخيرا وثاب الى نفسه ، لانه ادرك ان حمل الجثة معه لن يجدى ، لانه لا يدرى أين يقر به القرار فى ذلك القرار !

فاستسلم للقدر ، وترك صاحب العمر الذى لا نظير له ، وركب القارب الى مصيره المجهول !

وبعد يوم وليلة من أهوال شداد ، التقى الزورق بسفينة ترفع العلم الاسبانى ، فالتجأ اليها أراميس ونوتيته .. واظهر اراميس لربانها خاتم « القيادة العامة للرهبان الجزويت » ، فسجد أمامه الربان . فالاسبان امة متعصبة للكثلكة ، وللجزويت فيهما نفوذ لا يحد ، وائتمر بامره فحمله الى ارض اسبانيا معززا مكرما !



كان الملك لويس الرابع عشر جالسا الى باب الدخول ، مكبا على اوراق له ، غير انه كان يستطيع أن يرى فى مرآة أمامه كل من دخل من الباب دون أن يلتفت .

وهكذا ابصر دارتانيان داخلا ، وقد علا وجهه احمرار الغضب ، فالتفت اليه وقال له :

ــ هل كان يجب على ياسيدى حين أفكر في تأديب اعدائى أن انظر أولا هل هم يمتدون اليك بالصداقة أم لا ؟

ــ مهما يكن من اهتمام جلالتك باصدقائى أو عدم اهتمامك ، فانهم يهموننى . وكان من القسوة بمكان أن تدفعنى الى اقتناصهم لك كى اقدمهم الى جلالتك !

ــ لم تكن هذه قسوة ، بل كانت امتحانا أردت به أن أختبر خدامى الذين يأكلون خبزى ويجب أن يحموا شخصى . ففشل ذلك الاختبار ياسيدى !

ــ انى لم اتعود مثل هذه الخدمات . وان سيفى ليعصانى اذا جردته لخدمة قضية الباطل والشر . وان شرا لا شــــك فيه أن يهاجم ثلاثة آلاف جندى رجلين اثنين لم يهاجما شخص جلالتك ، وقد ضمن حياتهما ذلك الرجل الذى انقذ حياتك . ثم هل كان من شروط ذلك الاختبار أن تشك فى ولائى مقــدما ، بعــد اخلاصى لشخصك منذ ثلاثة عشر عاما ، حميتك فيها طفلا ، ووقفت الى جانبك فيها يافعا . وانى لاذكر هذا اليوم فقط ، لانه يبدو لى أن ذلك الماضى قد طواه النسيان ، وأن الشك قد تطرق الى صدق ولائى ! . .

ــ انى أريد استبقاء مودتك وولائك ، فانت آخر رجل من ذلك الطراز الجدير بغضبى أو صداقتى ، ولن اعفيك من احد هذين الامرين . واعلم ان فرنســـا يجب أن تكون عجينة طيعة فى يدى اشكلها كمـــا اريد . ولا يتيسر ذلك الا اذا خلت من كل عنصر للمقاومة . فالفنان لا يستطيع اداء عمله بادوات أو مداد تقاوم رغبته فى كل لحظة ! . وان مثلك يا سيدى مثل الذراع القوية . والله لم يشأ ان يجعل للأذرع الرياسة فى البدن ، أو حرية الارادة واستقلال الراى . وانما يكون ذلك للراس وحده . وانا لفرنسا ذلك الراس !

وانتفض دارتانيان لهذا الكلام انتفاضة لم تفت الملك . ولكنه تجاهلها ، واستطرد يقول :

ـ والان فلنعقد اتفاقا .. فانظر لنفســك هل ترى من حولى الا هامات متطامنة ورءوسا خفيضة وانظارا حاسرة ، فافعل مثل فعلهم ، ولك فى كبارهم أسوة ! . أو انشد لنفسك منفى تختاره . وارجو أن تقدر مبلغ احترامى لاخـلاقك اذا انفيك مطمئنـا الى اخلاصك ، مع علمى بمعرفتك لاخطر أسرار الدولة « وهو يشير بذلك الى أخيه التوأم » . انك رجل شجاع ، فلماذا تحكم على قبل الاوان ؟ نحن أولاد اليوم . فاحكم على منـذ اليوم بحسب اعمالى ، ولك أن تتشدد كما تشاء !

وسكت دارتانيان مترددا ، ثم حنى راسه الفضى ، فوضع الملك يده البيضاء فوقه باعتداد وهو يبتسم ، ثم قال :

ـ شكرا لك يا خادمى القديم وصديقى المخلص الامين . وما دمت منذ اليوم قد أصبحت ولا عدو لى فى فرنسا ، فقد بقى أن أبحث عن ميدان أجنبى أرسلك اليه كى تجنى فيه عصـا الماريشالية .. فاعتمد على فى تصيد هذه الفرصة !

قبران وامرأة

وفيما كانت هذه الاحداث الجسام تتحكم في حيـــاة الفرسان الثلاثة ، تتقاذفهم الانواء ، وهم يضطربون فيها بين العسر واليسر والباس والرخاء كان الفارس الرابع آتوس يقضي أيامه وقد اشتعل الراس منه شيبا ، بمعزل عن هذه الاحداث جميعا ، فقد نال منه غياب وحيده راءول في تلك الحملة التي يقودها الدوق دي بوفور في متاهات صحراء شمال افريقيا .

ولم يكن يغادر فراشه الا ليتمشي تحت الاشجار في بستانه ، غير ان هذه النزهة جعلت تنكمش كل يوم ، لان قدميه لم تعودا تستطيعان حمل جسمه ، مع ماطرا على ذلك الجسم من هزال ونحول .

وفي ذات ليلة راى فيما يرى النائم ان راءول واقف في خيمة بالمعسكر ، يتم ارتداء ثيابه ليتوجه في بعثة عسكرية يقودها الدوق دي بوفور بنفسه . وكان الشاب حزينا متبرما بحيـــاته ، يزرر سترته العسكرية في تثاقل ، فسأله ابوه :

ــ ماذا بك ؟

ــ ان ما يحزنني ويحزن قلبي ، هـو موت بورتوس صـديقنا الطيب ، واني أعاني هنا ذلك الالم الـذي توشك أنت أن تعانيه هناك !

ثم تلاشت الرؤيا ، واستيقظ آتوس . وعند بزوغ الشمس دخل عليه بعض خدمه وسلم اليه خطابا ورد من أسبانيا . فنظر الكونت في الغلاف وقال في نفسـه : « هذا خط آراميس » .

وفض الخطاب فما لبث ان صاح بعد أن قرأ السطور الاولى : « مات بورتوس ! » .

وقضي سائر ذلك النهار نائما غير مستقر كنوم المحموم ، وبات ليلته تلك محموما ، وظلت الحمى تزحف وتشتد ، ومع ذلك راى

فيما يرى النائم رؤيا واضحة جدا ، مثلت له ساحة العمليات التى نشطت فيها قوات دى بوفور فى شمال افريقيا ، فاذا سهول من الرمال مترامية الاطراف ، واذا صخور رمادية كالحة متناثرة هنا وهناك فى فوضى موحشة . ولم يلبث آتوس أن تبين أن ذلك الميدان هو ميدان المعركة التى احتدمت فى اليوم السابق ، ولكنه الان مفروش بالاشلاء المتخلفة عنها ، وتراءى له على البعد شبح أبيض ، يرتدى ثياب الضباط ، وفى يده سيف مكسور . وتقدم الشيخ نحو آتوس ، وحدق فيه دون ان يتكلم ، بل من غير أن يفتح ذراعيه لعناقه ! . ولم يكن ذلك الضابط الصامت الشاحب الا راءول وحيده العزيز !

وكانت هذه الرؤيا قد استغرقته كل الاستغراق ، ثم نبهه من نعاسه صوت ضجة عند أبواب المنزل الخارجية ، اذ أقبل جواد يعدو ، واشتجر الحديث وراح يقترب الى أن وصل الى حجرة الكونت . ولم يتحرك آتوس ، بل حول رأسه نحو الباب الذى فتح وقال بصوته الضعيف :

ـ أهو بريد من افريقيا ؟

فأجابه صوت جعله يختلج فى فراشه قائلا :

ـ كلا يا سيدى الكونت !

ـ جريمو !

وراح العرق يتصبب مدرارا على خدى الكونت ، وتقدم منه جريمو وقد تغير كثيرا فبدل بقوة بنيته هزالا ودهنا وشيبا مشتعلا. وقال الكونت بصوت هادىء جدا متزن النبرات :

ـ لقد مات راءول يا جريمو .. أليس كذلك ؟

فغمغم الخادم الشيخ بصوت اجش قائلا :

ـ نعم يا سيدى !

فلم يعلق آتوس بكلمة واحدة على ذلك الخبر ، ولم يطلق صرخة ، ولم يذرف دمعة ، بل اخلد الى صمت كاستسلام القديسين والشهداء ، ثم جمع كفيه فوق صدره ، وبدا يدخل فى غيبوبة النزع ، ثم سقطت يداه ببطء . كأنه هو الذى اراد ان يريحهما مبسوطتين فوق الفراش .. وانتهى كل شىء !

ومنذ الصباح ، تجمع الجيرة من وجوه الاقليم لتقديم العزاء فى

ذلك الراحل الكريم . ولكن دارتانيان بقى فى غرفته ولم يستطع مغادرتها لتقبل العزاء وشكر المعزين ، لان حزنه كان يضيق بكل صلة بالناس !

ولم يكن ما أهمه ذلك اليوم هو فجيعته فى آتوس وراءول وحدهما ، على ما فى هاتين الفجيعتين من ألم يهد الجبال ويقصم الظهور ، ولا سيما عند رجل مثل دارتانيان شديد الوفاء كبير القلب . بل لقد اذكره ذلك مصرعا ثالثا ، لاحب أصدقائه اليه ، وهو ذلك الجبار الطيب القلب النقى السريرة بورتوس !

وخيل الى دارتانيان فى عزلته أنه يسمع ضجة اعداد جنازة الكونت .. ثم دخل جريمو عند دارتانيان ، وجلس الى جانب الباب لا يقول شيئا ، شأن من يعمل قريحته فى موضوع يحيره . ولعله كان لا يدرى كيف يخرق حجاب صمت دارتانيان ، وكيف يعكر عليه عزلته !

ونهض جريمو أخيرا من مجلسه واشار الى دارتانيان دون أن ينطق لكى يتبعه ، فتبعه دارتانيان فى صمت كذلك ، الى الصالون ، حيث جرت العادة فى أقاليم فرنسا بأن توضع جثة الميت ، معروضة على المعزين ، ليصلوا بجوارها أو يقدموا اليها تحياتهم الاخيرة ... فدهش دارتانيان اذ يرى تابوتين لا واحدا وقد رفع عنهما الغطاء ، فاقترب منهما ، فاذا فى أحدهما آتوس ، وفى الاخر ولده راءول ! فأخذته رعدة لم يستطع مقاومتها ، وصاح فى دهشة :

ـ راءول هنا ؟ .. انك لم تخبرنى بذلك يا جريمو !

فهز جريمو رأسه ولم يجب ، ولكنه أخذ بيد دارتانيان واشار له الى الجراح العميقة المسودة التى خرجت منها الروح من ذلك الجسد الفتى ، فأشاح دارتانيان بوجهه كيلا يرى هذا المنظر الموجع !

وتمت مراسم الصلاة والدفن ، وانصرف المشيعون فى صمت وخشوع ، حتى بقى دارتانيان وحده مطرقا كمن لا يعى ما حوله ، الى أن تنبه لهبوط الليل ، فنهض عن المقعد الذى كان يحتله فى الكنيسة ، وتوجه الى الرحبة ليلقى على القبرين تحية الوداع الاخير ، فوجد أمام القبر امرأة جاثية تصلى ، ولبكائها صوت مسموع ، فوقف بباب البيعة متمهلا حتى لا يعكر عليها عزلتها

ويجرح انطواءها ويشوه قدسية احزانها المنطلقة فى غير احتجاز ، ولعلها تخفى سرا لا يحب أن يهتك ستره !

ونهضت المرأة الجاثية أخيرا ، وقد غطت وجهها بيديها البيضاوين كأنهما قدتا من مرمر شفاف ! .. ونم ثوبها البسيط من ذوق رفيع ومكانة مرموقة وتربية حسنة ... وكان فى انتظارها خارج اسوار الكنيسة عربة مغلقة ، من حولها كوكبة من الحجاب والوصفاء على جياد مطهمة !

وحاول دارتانيان أن يحدس من تكون هذه السيدة الرفيعة المنزلة ، ولكنها ما لمحته حتى تراجعت كمن فوجئت بمن لا تتوقع ، وان كانت تعرف هذا الذى فاجأها . وحينئذ عرفها دارتانيان كما عرفته !

لقد كانت هذه السيدة هى « لويز دى لافاليير » .

نهاية دارتانيان

مرت على تلك الاحداث اربعة اعوام ، وفى ذات يوم على شاطىء نهر اللوار ، اجتمع فى ضواحى « بلوا » الموكلان بالصيد الملكى ، وهما مروضا الكلاب والصقور الملكية ، وراحا يرتادان المنطقة التى يزمع الملك وخاصة اهل بلاطه ان ينطلقوا فيها للطراد .

واقترب دارتانيان من الرجلين وحياهما ، فردا تحيته باحترام شديد ، وقال صاحب الكلاب :

ــ ما اسعدنا برؤيتك يا سيدى الكونت .

ولم يدهش دارتانيان لهذا التلقيب ، لانه كان قد صار كونتا منذ اربع سنين ، بل التفت اليهما وراح يوصيهما بالا يطيلا امد الطراد ، لانه متعب لحضوره من سفر بعيد ، فقال صاحب الصقور :

ــ لا عليك يا كونت ، فليس الملك من خبراء الصيد أو المبرزين فيه ، وانما هى تسلية يقدمها للسيدات !

ثم ظهر الملك ومن حوله « السيدات » ورفاق الصيد !

ورمى دارتانيان ببصره ، فرأى وراء هذه المجموعة ثلاث عربات كبيرة أولاها عربة جلالة الملك ، ولكن العربة كانت خالية !

ولم ير دارتانيان « لويز دى لافاليير » بجوار الملك كما هى العادة ، فراح يدور ببصره مفتشا عنهـا ، فابصرها جالسة فى العربة الثانية ، التى تلى عربة الملكة الخالية . وكان معها فى العربة امرأتان من الوصائف ، يبدو عليهما السأم كسيدتهما !

والى يسار الملك ، كانت هنـاك فارسة على جواد مطهم من الصافنات مشرقة الاسارير ، بارعة الحسن ، تبهر الانظار بحسن

فتنتها ورشاقتها . وكان الملك يبتسم لها ، وكانت هى تبتسم للملك ، فكان شمسا تشرق من عينيها ، وافترار شفتيها ، وجبينها !

وكان الجميع من حولها يقهقهون ضاحكين حين تتكلم . فقال دارتانيان فى نفسه :

ــ انى أعرفها ، ولكن من هى على وجه التحديد ؟

وفى هذه اللحظة رأى الملك دارتانيان ، ولم يكن رآه من قبل لانه كان فى باريس ، فأشار اليه صائحا به :

ــ اهذا أنت يا كونت ؟ . انت مدعو الى العشاء على مائدتى الليلة !

فالتف رجال الحاشية حول دارتانيان مهنئين بهذا العطف السامى .

وتقدم الملك بضع خطوات ، فشعر دارتانيان بشخص يسد عليه الطريق ، وكان هذا الشخص هو الوزير كولبير ، الذى حيى دارتانيان تحية طيبة ثم قال له وهو يبتسم :

ــ لقد سمعت الملك يدعوك للعشاء الليلة .. وابشرك بأنك ستجد معك على المائدة صديقا عزيزا قديما !

وما أتم عبارته حتى انبعث من العربة الثالثة صوت شيخ مقوس الظهر أبيض الشعر ، كأنه الثلج ، راح يعالج باب العربة ليهبط منها ، وهو يقول له :

ــ انا يادارتانيان !

فصاح دارتانيان مبغوتا : « اراميس ! » .



حينما اقيمت حفلة العشاء فى المساء ، جلس الكونت دارتانيان مع الملك والوزير كولبير والدوق الاميدا . وكان الملك منشرح الصدر ، فراح يجامل زوجته الملكة ويلاطفها .

ووجه الملك الكلام مرتين او ثلاثة الى اراميس ، ملقبا اياه بفخامة السفير .. الامر الذى زاد فى دهشة دارتانيان ، اذ لم يصدق أن اراميس ينال رضا الملك وحظوته يوما من الايام !

وبعد انتهاء حديث المجاملة خاطب كولبير اراميس قائلا :

ــ انى قد أصلحت ما بينك وبين الملك يا دوق ، وانت فرنسى

اكثر منك اسبانى ، فهل تضمن لنا حياد اسبانيا اذا ما اشتبكنا فى حرب مع هولندة ؟ . انت لا تجهل ان هذه الحرب ستكون بحرية قبل كل شيء .. اليس هذا رايك ايضا يا كونت دارتانيان ؟

ـ ان رايي يا سيدى ان هذه الحرب سيحتاج الملك فيها الى جيش برى قوى قبل كل شيء !

فصاح اراميس : « لماذا هذا الجيش البرى ؟ » .

ـ لان جلالته سيهزم فى البحر ، وسيضطر الى القتال فى البر كى يحمى شرفه وينتزع النصر !

ـ ولماذا يهزم الملك فى البحر ؟

ـ لان الهولنـــديين من جانب ، والاســبان من جانب آخر ، سيناوشونه .

ـ واذا ضمنت حياد اسبانيا ؟

ـ اسبانيا ستبقى محايدة ما ظل الملك اقوى من اعدائه وارجح منهم كفة !

فاعجب كولبير بهذه الحصافة . اما اراميس فابتسم ، فهو يعرف دارتانيان منذ زمان بعيد ، ويعرف فيه صدق الراى وبعد النظر فى امور السياسة .

ثم قال كولبير باسما : « من قال لك يا كونت دارتانيان ان الملك ليس عنده اسطول ؟ .. ان لدى الملك يا سيدى خمسا وثلاثين سفينة ، فيها نحو الفى مدفع قوى .. ويمكن عمل ثلاثة اساطيل من هذا العدد الضخم ، ولكنى مصر على أن يكون للملك خمسة اساطيل ، لابد ان تمخر البحر قبل نهاية هذا العام ... اذ سيكون لدينا خمسون سفينة حربية مجهزة اتم تجهيز بالدروع والمدافع ! » .

فقال دارتانيان وهو يهز راسه الاشيب :

ـ ان بناء السفن ســهل ، ولكن تسليحها هو الصعب ، فاين المصاهر والترسانات ؟

ـ لقد شيدت الترسانات والمصاهر وغيرها منذ سنة ونصف سنة فى الخفاء ، وهى تعمل الان ليل نهار لانجاز بقية الاســطول المطلوب . ولهذا قلت الان لفخامة السفير الدوق « الاميدا » ان

حياد اسبانيا ، مضافا الى مساعدة انجلترا ، ستكفل لنا النصر .
فابتسم دارتانيان ونظر الى صديقه أراميس وقال :
ـ اذا ساعدتنا انجلترا فحياد أسبانيا مضمون !
ـ اذن خذ هذه الكراسة الصغيرة يا كونت دارتانيان ، وادرسها جيدا ، ففيها خطة الغزو . وستكون انت القائد العام فى هذه الحملة ، وستكون عصا الماريشالية فى انتظار أول انتصاراتك !
وحالف النجاح دارتانيان فى الهجوم الاول ، فارسل الى الملك رسولا كى يبلغه ذلك النصر . واثلج صدر الملك بهذه الفتوح ، وامتلأ زهوا ، ووجد نفسه مدينا بهذه السعادة للكونت دارتانيان ، فكتب الى كولبير يقول :
ـ لقد وعدنا الكونت دارتانيان وعدا آن لنا أن ننجزه ، بعد أن بر بعهوده ، وهذه ارادتنا
فما وصلت هذه الارادة الملكية الى الوزير حتى اعطى رسول دارتانيان لدى البلاط صندوقا صغيرا من خشب الابنوس المطعم بالعاج والذهب ، وخطابا شخصيا الى الكونت ... وزوده بخمسة فرسان لحراسته فى طريق العودة الى ميدان القتال !
وكان الامر الصادر للرسول أن يفتش عن الكونت حتى يجده ، فى أى ساعة من ساعات الليل أو النهار ، فمضى الرسول يجتاز بجواده الخنادق والسهول بحثا عن ذلك القائد الذى لا يقر له قرار ثم أخيرا رأى دارتانيان بثوبه المعروف وقامته المديدة ، ينفض التراب الذى كانت تثيره وتلقيه على ملابسه قنابل الاعداء ، غير مبال بها .. فانه كان واقفا فى انتظار اتمام حفر الخنادق حتى يحتمى بها الجنود!
وتقدم منه المهندس فحياه وأبلغه انتهاء الحفر ، ولكن دارتانيان لم يجبه ، لان رصاصة أصابت ذلك المهندس ، فخر بين ذراعى دارتانيان ! فحمله دارتانيان وهبط به الى الخندق ..
ثم أمر دارتانيان بالهجوم ، فتسلق جنوده أسوار الحصن ، ودارت معركة بالسلاح الابيض بين الفريقين ، ارتفع فيها صراخ الهولنديين ... وحينئذ أمر دارتانيان طابورا احتياطيا فهاجم الابواب وأشعل فيها النيران !
وفى هذه اللحظة التى تنسم فيها دارتانيان ريح النصر التى تجلو صدره العريض ، اقترب منه الرسول وقال :

ـ رسالة من الوزير كولبير ياسيدي الكونت !

ففض دارتانيان ختم الخطاب ، فاذا به تهنئة بالماريشالية ، التى اهدى الملك عصاها اليه فى ذلك الصندوق الفاخر اعترافا بفضله وتنويها بقدره .. فانتشى دارتانيان بذلك الخبر ، ومد يده الى الصندوق فأخذه من الرسول ، واذا برصاصة من أعلى السور تستقر فى صدره ، فانقلب على ظهره ؟ والعصا المزركشة فى يمينه .

وحاول دارتانيان أن ينهض ، ولكنه لم يستطع .. وبدأت صفرة الموت تسرى فى وجهه النبيل !

وكانت آخر كلماته :

ـ آتوس . بورتوس . هاالندا !.. وداعا يا أراميس !

تمت

٥٠ قرشا



هذه الرواية

هى رواية حب وهيام ، وبسالة واقدام ، ومغامرة وتضحية فى سبيل الحب والكرامة ، وفى سبيل النبل والشرف والجمال .. وهى احدى حلقات سلسلة الفرسان الثلاثة للكاتب الاشهر اسكندر دوماس الكبير .. وقد عنيت « روايات الهلال » بنشر هذه السلسلة التى تعد من الذخائر الروائية فى العالم ..

والفيكونت دى براجيلون هو باول الفارس الشجاع الذى قام بمغامرات كثيرة من اجل عشيقته لويز دى لافاليير التى احبها الملك لويس الرابع عشر ، وانتهت حياته بمأساة اليمة . وهو شاب فى الخامسة والعشرين مثال صادق للمحب المتفانى فى حبه ، المقامر فى حياته ، الذى يستهين بكل شىء من اجل الحب . ولكن ملكا غشوما مستبدا شغوفا بالنساء يقف فى سبيله ، ويغتصب اعز شىء لديه ، ويقضى على آماله الكبرى

وفى هذه الرواية نشهد نهاية اثنين من الفرسان الثلاثة ، وهما آتوس الفارس المغوار والنبيل الكريم والدراول ، وبورتوس اطيب الفرسان قلبا واشدهم قوة . كما نشهد نهاية دارتانيان قائد فرسان الملك لويس الرابع عشر ، وزميل الفرسان الثلاثة ولقد كان له ولهؤلاء الفرسان : آتوس وبورتوس وآراميس ، ودارتانيان ادوار هامة فى حوادث عصرهم .

روائع مجلة
الابتسامة
من الكتب
المعالجة
والصفحات الفردية